الرد على محمد السعيد مشتهري

منكر أحاديث النبي



بقلم الأستاذ/ شافع توفيق محمود
المحامي بالنقض والمحاكم العليا

طلب إذن

سيدي وحبيبي ونور قلبي وقرة عيني محمد صلى الله عليه وسلم، وحبيب المؤمنين الصادقين، أستأذنك في أن أطلق قذائفاً من قذائف الحق أصيب بها في مقتل كُلَّ المنكرين لسنتك

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ الإسراء: ٨١

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الأنبياء: ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الرد على محمد السعيد مشتهري

منكر أحاديث النبي

بقلم الأستاذ/ شافع توفيق محمود
المحامي بالنقض والمحاكم العليا

تم الطبع شركة الصفا للطباعة
١٢ ش سمير عبد الرحيم من الجزائر
العمرانية الغربية - جيزة
ت: ٣٥٦٣٠٨٧٢

مقدمة بقلم فضيلة الشيخ د/ أبو الوفاء عبد الآخر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد ...

إنني أتوجه بالنصيحة إلى دعاة القرآنية فأقول لهم: لماذا تنكرون السنة؟ وهل في السنة ما يناهض القرآن؟ إن إنكاركم للسنة جعلكم مثار إعجاب لأعداء الدين حتى أطلقوا عليكم هراطقة المسلمين تشبيهاً لكم بهراطقة المسيحيين الذين أثاروا المشاغبات ضد رجال الدين في أوربا في العصر الروماني علماً بأن مرجعيات الإسلام هي القرآن والسنة التي تتميز بالوحي الصادق، والتواتر الثابت مما جعلها مرجعيات لا تحريف فيها ولا اضطراب خلافاً للمرجعيات المسيحية من الكتاب المقدس إلى مواعظ رجال الدين غير الثابتة، إني سأكتفي بشواهد من القرآن والسنة للتدليل على أهمية السنة النبوية كمرجعية إسلامية فأذكركم بقوله تعالى:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾﴾

النساء: ٨٠. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ الحشر: ٧. وقوله – صلى الله عليه وسلم: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي".

ثم أعود فأسألكم كيف تعرفون تفاصيل العبادات، وتفاصيل التشريعات التي لا يستكمل المسلم دينه إلا بها. إن إنكار ذلك هو الفسوق

والعصيان، وإني لأرجو لكم الهداية وأحسن الظن بكم ولن أتهمكم بالعمالة ولا بالخيانة للأمة، إنما هو سوء الفهم أو طلب الشهرة على حساب دين الله، وهذا يمضي بكم إلى الهاوية فانتبهوا.

إنني أتصور هذا السفر العظيم وهذه الدراسة القيمة هي بمثابة طوق النجاة لكم، وأرجو الله أن تكون سبباً في هدايتكم، ومراجعة أفكاركم، وأسأل الله أن ينفع بها صاحبها والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأن يئد بها تلك الدعوة الضالة المؤلمة لكل مسلم، فالسنة عزيزة على المسلمين وغالية عليهم كآبائهم وأبنائهم، وهي أغلى شيء عندهم، إنها أغلى عليهم من أنفسهم وأزواجهم وذرياتهم فلا تفجعونا في أعز شيء لدينا بعد كتاب الله، إن أهل القرآن هم أهل الله، وهم أهل سنة رسول الله – عليه الصلاة والسلام. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

د. أبو الوفاء عبد الآخر

المفكر والكاتب والباحث الإسلامي

الحمد لله العزيز الوهاب، والصلاة والسلام على الحبيب محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وبعد...

فإنه وفي سياق الهجوم المنظم على السنة المطهرة، ومن ثم على الدين الحنيف دين الإسلام، ظهرت جماعة منظمة تدعو إلى إهدار السنة النبوية والتشكيك فيها، وكان قد حمل لواء هذه الجماعة جماعة من المستشرقين الذين أعيتهم الحيل في التسور على كتاب الله - القرآن العظيم - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد بلغ توثيقه غاية المدى وحفظته الصدور فور نزوله وسجلته كذلك السطور فور نزوله أيضاً سطراً سطراً وحرفاً حرفاً، حتى رووا أوجه نطقه بلهجات القبائل، ورووا طرق رسمه في الصحائف ، "**لذلك اعتبر القرآن من الناحية الوثائقية البحتة أقدم وثيقة تاريخية وردت بالتواتر (إفادة علم اليقين)**"([1])، فضلاً عن تسليم البشر من وقت نزوله بأنه ليس من كلام البشر بمحتواه وبلاغته التي بلغت غاية المدى، وما سبق به العلوم المعاصرة، وإخباره بالغيب وتفرده وتميزه في كافة المحتوى.

من هنا اتجهت جهود المستشرقين نحو السنة النبوية المشرفة "وهي المذكرة الشارحة للقرآن الكريم، والحكمة التي آتاها الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – على أمل أن يحقق لهم الطعن في السنة والتشكيك فيها هدفهم وهو توقيف القرآن عن السير والعمل في توجيه الحياة البشرية، وبالتالي يتحقق لهم مرادهم ألا وهو هدم الدين بالكلية، ذلك أن تنفيذ أحكام القرآن لا

---

[1] -[راجع تقديم عمرعبيد حسنة لكتاب الأمة "الفكر المنهجي عند المحدثين للدكتور همام عبد الرحيم – عدد محرم ١٤٠٨هـ]

بد له من لوائح تنفيذية ومتممة؛ ألا وهي ما يسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بوحي من الله. قال تعالى عن رسوله – صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ النجم: ٣ - ٤.

ورفع القرآنيون راية ماكرة للخداع – وذراً للتراب في العيون كتبوا عليها "استغنوا بالقرآن عن السنة"، إلا أن واحداً من أذكيائهم المهرة من المعاصرين يدعى محمد سعيد مشتهري – والده رحمه الله كان يدعى بإمام أهل السنة بالجمعيات الشرعية – إلا أنه ومن المفارقات أن ولده سعيد إمام ماهر في عداوة السنة، فأراد أن يزيد في خداع الأمة فاصطلك مصطلحاً جديداً مخادعاً أطلق عليه "السنة حقيقة قرآنية" لتكون كلمة حق أراد بها باطل.

وتحت هذا العنوان راح ينفث سمومه ضد السنة ويزعم أن المقصود بالسنة هو آيات في القرآن جاءت بسنن – أي أوامر –.

وتلقى علماء الأمة ادعاءاته بكبير الدهشة لأن المذكور نشأ في بيئة سنية، فوالده – رحمه الله – إمام في الدين ومن الراسخين في العلم، فلا غرو أن البعض اتهم سعيد بالعمالة، أو التشيع لاسيما وقد سافر إلى دولة شيعية، وقد اعترف لنا في مكالمة هاتفية بمنزل الأخ الفاضل فضيلة الشيخ الموسوعي المحقق/ يحيى خالد (مدير عام باتحاد الإذاعة والتليفزيون)، اعترف لنا محمد السعيد بأنه سافر إلى دولة شيعية وأنه التقى بعلماء الشيعة كما قرر لنا أن الشيعة الآن هم خير من في الساحة الإسلامية.

وطلبت منه اللقاء لمناقشته في أفكاره فقال بشرط أن تناقشني على أساس من منهجي لا مناهج أهل السنة لأنني لا أعترف أصلا بشيء اسمه أهل السنة والجماعة ولا أعترف بعلم الحديث.

قلت متهكما إذاً فهل ترى يا أستاذ سعيد أن نلقي بعلم الحديث في عرض البحر؟! قال نعم.

وقد عرض سعيد كتاباته على الأزهر الشريف فقرر مصادرتها.

وسنرى وبحق أن أقل ما يقال فيها أنها تتسم بالضحالة العلمية وأنه غاب عنها المنهج العلمي الدقيق، وأنها افتقدت كل الضوابط الشرعية، ربما وتبعاً لإحسان الظن أن صاحبها غير متخصص ولا متبحر في العلوم الشرعية، فهو حاصل على بكالوريوس تجارة قسم اقتصاد، والمدرس المساعد (بالأقدمية) بالمعهد العالي التجاري – سابقاً – بمنطقة شبرا، وصاحب مصنع ومحل أصفهان للعطور بمنطقة مصر الجديدة.

إن أفكار سعيد هي أفكار مدمرة وخطيرة، فلا غرو أن من العلماء من وصم هذه الأقوال بالكفر والخروج الصريح من الملة، وليس المقصود بالطبع تكفير سعيد بعينه، إنما هم يتحدثون عن حكم عام، أما تكفير المعين فهو محاكمة لها قواعدها وإجراءاتها.

وأتمنى أن يكون فعل سعيد – حبا في والده رحمه الله - مجرد نزوة عارضة طلباً للشهرة، إذ من الواضح الجلي أن كل من تطاول على النبي - صلى الله عليه وسلم - وسنته المشرفة تفتح له كل الأبواب المغلقة، وتبلغ شهرته الآفاق، ويغشى المنتديات الدولية.

ترى هل أراد سعيد أن يدلف من نفس الباب الذي دلف منه صبحي منصور إمام أدعياء القرآنية، أو جمال البنا – شقيق الإمام حسن البنا رحمه الله –؟!

خذ مثلاً "منتدى منظمة أقباط الولايات المتحدة" لقد احتفى بالسعيد أيما احتفاء وأفرد الصفحات لكتابه، ونقل عنه قوله (إن الباحث اليوم لا يملك التحقق من صحة السنة، فلا يوجد كتاب واحد يجمعها له درجة إسناد القرآن، وتركت السنة لرجالٍ هذا يضعّف وهذا يصحح، وطالما هي للتشريع فكان لا بد أن الأخبار بها تكون قطعية ويقينية الثبوت مثلها مثل القرآن).

ونقلوا عنه قوله (السنه ليست تراثا روائيا تتخذه كل فرقه لتدعيم توجهاتها الخاصه بل حقيقية قرآنية فالنص القرآني والسنة النبوية واحد)؟!

وقالوا (لقد قدم له الدكتور عبد الصبور شاهين بالثناء على جهده).

وقالوا (يروي الدكتور محمد سعيد مشتهري واقعة خطيرة أعقبت صدور كتاب السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث حيث ثار العلماء ضده وقالوا منكر السنة كافر، ويروي د/ السعيد أنه وقتها توجه إلى الشيخ/ المشد ليطلب منه الفتيا بأنهم لا يقصدون تكفير الشيخ الغزالي – أي بعينه وشخصه – فقال له الشيخ المشد إن الجو العام غير مناسب، وصدرت الفتوى بعد ذلك ونشرها الشيخ الغزالي – رحمه الله – في كتابه "تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل".

ومضى المنتدى القبطي الأمريكي إلى الثناء على السعيد بقوله "وقد قام المؤلف بعمل فريد اجتهد فيه في استنباط السنة النبوية من القرآن من كل سورة على حدة بدءاً من فاتحة الكتاب، ثم أورد في نهاية الكتاب اجتهادًا

جريئًا تأسس علي جهد كبير يستحق التقدير بقدر ما هو مرشح لأن يثير ردود أفعال غاضبة".

إنني لم أكن أعرف أن سعيد له مؤلفات ضخمة في الهجوم على السنة، لكنني وفي الآونة الأخيرة هالني ما قرأته له في بعض الصحف من مقالات له ولغيره ضد السنة، فبادرت إلى كتابة مؤلف بعنوان **"الرد على القرآنيين دفاعاً عن سنة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم"**([1]).

والحمد لله تلقته الأمة بقبول حسن، وإبان نشر هذا الكتاب كانت المهاتفة مع سعيد التي أشرنا إليها، ولما علم الشيخ الفاضل/ يحيى خالد بموضوع كتابي آنف البيان قال لي بأن د/محمد السعيد له مؤلفات، و قام مشكوراً الأخ الأستاذ/ يحيى بإمدادي بها، وهي (١- لا إله إلا الله عقيدة وشريعة، ٢- محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صفات الكمال البشري، ٣- إشكاليات الخطاب الديني، ٤-السنة النبوية حقيقة قرآنية)، ووجدت أن الأمر جد خطير، فكتبت هذا البحث إفرادا للرد على هذه المؤلفات الفاسدة، إذ الفكرة لا تقاومها ولا تقوّمها مثل الفكرة، على أمل أن يثوب سعيد إلى رشده ويتوب إلى ربه.

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الفقير إلى رحمة ربه
شافع توفيق محمود
المحامي
بالنقض والإدارية العليا والدستورية العليا

---

[1] - نشرته دار الصفا والمروة بالاسكندرية – ١٨٥ش جمال عبد الناصر – ٢٠٠٨

الفصل الأول

شبهات وأراجيف

تمهيد:

إن فكرة د/محمد السعيد تقوم على أساس تنظيري يستند على فكر من سبقه من دعاة وأدعياء القرآنية قديماً وحديثاً، وفي بعض جوانبه يستعمل المنهج الفلسفي السوفسطائي الذي يعمد إلى قلب الحقائق ويصور الحق على أنه باطل والباطل على أنه حق، كما يستخدم المنطق الأرسطي الضال المضل، بغرض إثارة الغبار الكثيف في وجه الحقيقة، لكن هيهات هيهات، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ الرعد:١٧

إننا في هذا الفصل نسوق شبهاته وأراجيفه ثم نرد عليها في فصل آخر.

الشبهات والأراجيف:

١- يرى د/محمد السعيد أن مهمة النبي – صلى الله عليه وسلم – هي تطبيق أو تفعيل النص القرآني، وبالتالي فالسنة حقيقة قرآنية، وأقوال النبي – صلى الله عليه وسلم – وأفعاله وتقريراته لا دور لها في البناء الإيماني والتشريعي والشعائري، ولا حتى في المنظومة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية إلا من حيث هذا

النظر "تفعيل النص القرآني" وحجته في ذلك أن السنة لم يشأ الله لها الحفظ كما حفظ كتابه.

قال عن أحاديث النبي – صلى الله عليه وسلم – ما نصه: "فرسول الله لا يعلم عنها شيئاً ولا على أي أساس أقام علماء كل فرقة تدوينهم لهذه الأحاديث ولا عمّن أمرهم بهذا التدوين العشوائي .. ليصلوا بعد ذلك إلى القول بظنّية ثبوت هذه الأحاديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وليس بقطعيتها، فلم يجرؤ أحد منهم على القول بأنه قد وصل إلى علم اليقين الذي يجعله يشهد بأن هذه الأحاديث خرجت فعلاً من لسان رسول الله!!...

والسؤال: هل يعقل أن يحدث اختراق للحديث النبوي إذا كان حقاً وحياً إلهياً واجب الاتباع؟!!".([1])

٢- شأنه كشأن كل أدعياء القرآنية يرفضون الأحاديث النبوية بنظرهم العقلي فيها حتى ولو كانت هذه النصوص تتعلق بعالم الغيب.

وسنناقش في الفصل الثاني هذه المسألة بالتفصيل.

٣- هو يرى أن كل تشرذم وتفرق مرده إلى السنة، أما القرآن فهو يؤكد على توحيد الأمة ويحذر من انقسامها.

٤- السنة من وجهة نظره هي نصوص قرآنية تحتاج إلى تفعيل، ويعتبر أن السنن هي ما جاء في كتاب الله كسنة الصبر، وسنة الرحمة، وسنة الفهم الواعي، وسنة الحذر.

---

[1] - محمد السعيد، إشكاليات الخطاب الديني – ص ١، ٢.

ومن طرف غير خفي يومئ إلى عدم الاعتماد في فهم القرآن على كتب التفسير إذ ينصح بالاستعانة بالمعجم لأجل فهم هذه السنن.([1])

٥- يخلط بين الفتيا والحديث، ويرى التخلص من كتب المذاهب لأن أمهات الكتب تُعالج برؤى مذهبية، وأنه لا حاجة للرجوع إلى فقه السابقين.

إذ يقول ما نصه: "لقد كان من البديهي بل والمنطقي أن ترث الفرق والمذاهب المختلفة تراثاً تاريخياً أصابه الباطل، وثقافة روائية قامت على عقائد مذهبية تشربتها القلوب فأنبتت فكر التخاصم والتقاتل ... إشكالية تراثنا التاريخي، إشكالية الحديث المبين لأحكام الصلاة ... ما يتعلق بمسائل العبادات، إشكالية ثقافة المرويات ... وبذلك تظل النظرة التخاصمية قائمة بين الفرقة الواحدة وباقي الفرق الأخرى".([2])

ويحتفي محمد السعيد أيما احتفاء بما قاله الصادق النيهوم في كتابه "محنة ثقافة مزورة"

[أما إذا كان الخليفة رجلاً أموياً اغتصب السلطة بقوة السلاح فإن هذا التقسيم يجعله خليفة رسول الله في شؤون الإدارة والقضاء من دون أن تنتخبه الأغلبية ويمنحه بذلك حقاً شرعياً، مستمداً من علم الحديث وليس من إجماع الناس. لقد فتح الخليفة الأموي لنفسه في جدار الإسلام، ثغرة على مقاسه بمعاول الفقهاء.

وخلال وقت قصير كان الحديث قد أصبح علماً جديداً، هدفه المعلن أن يحفظ سنة رسول الله، وهدفه غير المعلن، أن يخول الفقهاء

[1] - محمد السعيد مشتهري، السنة النبوية حقيقة قرآنية، دار مصر المحروسة، وكتابه محمد رسول الله – صفات الكمال البشري.
[2] - محمد السعيد مشتهري، إشكاليات الخطاب الديني، ص ٢، ٣.

سلطة التشريع نيابة عن الأغلبية وقد عمد الإمام الشافعي إلى تحديد مصادر الشرع، في أربعة مصادر هي القرآن والسنة والإجماع والقياس، وفسر الإجماع على أنه إجماع الصحابة وليس إجماع الناس أنفسهم، مما ترتب عليه تلقائياً، أن انقسمت السنة بدورها بين مذاهب الفقه فأصبح للشيعة أحاديث، وللخوارج أحاديث، وللمرجئة أحاديث ومن فتح الباب المسحور الذي يحاول الفقهاء إغلاقه عبثاً منذ ذلك الوقت حتى الآن بكتب تصحيح الحديث وكتب تصحيح التصحيح. إن الإمام الشافعي يقدم مصادر جديدة للتشريع ليس بينها سلطة الناس أنفسهم، وهو خطأ لم يكتشفه المسلمون إلا بعد ظهور الديمقراطيات الحديثة في الغرب].([1])

ويقول محمد السعيد ما نصه: "لقد نسخت آيات الذكر الحكيم وعطلت أحكامها باسم السنة النبوية، وأولت تأويلات لا يقبلها عاقل باسم هذه السنة، وحرم ما أحل الله تعالى باسم السنة، وأسيء إلى الله تعالى وإلى رسوله باسم السنة، ثم إذا بنا نجد أن هذه السنة ما هي إلا مرويات مذهبية منسوبة إلى رسول الله لم يشهد لها عصر الرسالة أصلاً ولا عصر الخلفاء الراشدين الأربعة كتاباً يحويها"([2]).

٦- هو لا يعترف بالمذاهب الفقهية، ويرى أنها أدت إلى تمزيق الأمة، ويدعو إلي التخلص من كتب المذاهب لأن أمهات الكتب تُعالج برؤى مذهبية، وهو يرى أنه لا حاجة للرجوع إلى فقه

[1] - محمد السعيد مشتهري، إشكاليات الخطاب الديني، ص ٢٨٦، ٢٨٧.
[2] - محمد السعيد مشتهري، السنة النبوية حقيقة قرآنية، ص ٢.

السابقين، بل لا يعترف بالتاريخ لأن التاريخ من وجهة نظره دُوِّن بروى مذهبية، وبالتالي فلا قيمة له.[1]

٧- يقول بأن من يزعمون أنهم علماء أهل السنة من نجوم الفضائيات لا يقدمون العقيدة الراسخة والفهم السليم للدين والشريعة الخالدة.

ويتساءل هل يجوز التكفير واستحلال الأموال والأعراض واستحلال المدنيين بدعوى قال الرسول كما يفعل جماعة من أهل السنة والجماعة؟!

٨- الادعاء بأن والده يؤيد فكرته، وأن فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور/عبد الصبور شاهين وافقه على فكرته بدليل أنه قدم لكتابه "السنة النبوية حقيقة قرآنية"، كما ألمح أن الشيخ الغزالي سبقه إلى فكرته.

٩- علم الجرح والتعديل في نظره مجرد وجهات نظر لا ينبغي الاعتماد عليها، إذ لا تؤدي إلى حتمية اليقين بصحة نسبة الخبر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - لأن ذلك يقتضي من وجهة نظره وجود شريط مسجل بصوت النبي - صلى الله عليه وسلم - ليستوثق د/محمد السعيد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال ما قاله من أحاديث، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيقرر أنه لا يملك أيضاً القرائن اليقينية القطعية "الحتمية" على صحة نسبة كتب السنن لأصحابها، وأن تواتر الأخبار لا يكفيه، وبالجملة فهو

---

[1] - إشكاليات الخطاب الديني – محمد السعيد مشتهري.

يشكك في كل قضايا الخبر، وهذا التشكيك هو مركز الدائرة الذي تدور حوله كل أفكار محمد السعيد.

١٠- يتطاول على أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – ويصب جام غضبه على الصحابي الجليل أبا هريرة - رضي الله عنه -، واتهم البخاري بأنه يروي إسرائيليات، وشن حرباً ضارية ضد عمربن الخطاب - رضي الله عنه - بدعوى أنه منع إملاء النبي - صلى الله عليه وسلم - كتابة تولية علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - للخلافة.

يقول ما نصه: "واستسلم عثمان للموت ووقف كبار الصحابة موقفاً سلبياً أمام تصاعد أحداث الفتنة باسم الإسلام، فهل يمكن أن يقبل مسلم أن يكون هذا هو حال الجيل الأول من صحابة رسول الله، هؤلاء الذين تربوا على مائدة القرآن، أرى أن الحقيقة لا يعلمها إلا الله تعالى، هذا الإله الرحيم الذي من رحمته أن فصل بين ما هو وحي إلهي وما هو تراث بشري تعهد بحفظ وحيه، وترك البشر لتراثهم المذهبي"([1]).

"..وهذا الإسراف بالغلو فى تنزيه جميع الصحابة عن الكذب ووضعهم فى مستوى القديسين والملائكة الأبرار جاء بنتائج شوهت معالم السنة وقامت بتحصين البغاه والقتلة والمجرمين فى حصن منيع لايجوز الإقترب منه لأن البغاة في خيمة القديسين والملائكة الأبرار ... ويعلم أصحاب اللافتة أيضاً أن بعض الصحابة أمثال معاوية والمغيرة وابن العاص وولده عبد الله وطلحة والزبير الذين تزعموا حركة المعارضة لخلافة على بن أبي طالب على امتداد خلافته أدت أعمالهم إلى معارك من نتائجها مقتل الألوف من

[1] - محمد السعيد مشتهري، إشكاليات الخطاب الدينى، ص ٤٥.

المسلمين بعد أن ضربوا بتحذيرات النبي – صلى الله عليه وسلم – عرض الحائط، ويعلم أصحاب اللافتة أن الكثيرين من الصحابة كانوا مدخلاً لتحريف السنة وتجاهل أحكام الدين ونحن نسأل: إذا كان النبي – صلى الله عليه وسلم – جعل أصحابه دون استثناء فوق البشر من حيث العدالة والصدق والإخلاص إلى غير ذلك، وإذا افترضنا أن الساحة لم يكن بها منافقون وأن الجميع أطهار، فبأي من هؤلاء نقتدي بالذين بايعوا أبا بكر، أم بالذين تخلفوا عنه؟ بمن يمكن الاقتداء بالذين كانوا مع عثمان أم بالذين أنكروا عليه أعماله، ومن المسئول عن سفك الدماء يوم الجمل، وبأي الفريقين نقتدي؟ ... "(١)

ولا ينسى محمد السعيد في هذا السياق أن يصوب سهامه إلى خصمه الألد الإمام البخاري بحجة أنه روى عن مروان بن الحكم وأبي سفيان ومعاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن عمرو والنعمان بن بشير الذي لازم معاوية وولده يزيد إلى اللحظة الأخيرة من حياته، واشترك معهما في جميع الجرائم والفتن، ولم يذكر البخاري الحسن والحسين في جملة من رووا من الصحابة، وأكثر من روى عنه البخاري أبو هريرة وعائشة وعمر وعبد الله بن عمر.(٢)

١١- التشكيك في قضايا سنة الآحاد والسنة المستفيضة المشهورة بل التشكيك حتى في قضايا السنة المتواترة.

١ - محمد السعيد، إشكاليات الخطاب الديني، ص ٢٨٢، ٢٨٣.
٢ - المرجع السابق، ص ٢٨٤.

إذ يقول ما نصه: "لقد نسب علماء السلف إلى الله تعالى مصدراً تشريعياً قولياً ثانياً بدعوى أن الله تعالى خص رسوله محمداً – صلى الله عليه وسلم – به لبيان واستكمال أحكام القرآن، ثم عندما أرادوا أن يقيموا الدليل على صدق دعواهم هذه جاءوا بأخبار ومرويات أقاموا عليها دعواهم.

إن رسول الله محمداً بالنسبة لنا اليوم غيب يتوقف إيماننا به على قدر ثقتنا في المُخبر، أما من عاصروا رسول الله وشاهدوه فإيمانهم به إيمان يقيني، ولكي يتساوى إيماننا مع إيمانهم هذا يجب أن يكون المخبر لخبر رسول الله هو الله تعالى، لأن الذي يقدح في صحة الأخبار هو الخوف من أن يكون المخبر كاذباً، والله تعالى أصدق الصادقين، ومن أصدق من الله حديثاً ومن أصدق من الله قيلاً؟، أن يصلنا هذا الخبر عن طريق مصدر قد ثبت لنا صحة وصدق نسبته إلى الله تعالى ثبوتاً قطعياً يقينياً وهو القرآن الحكيم .. ذلك لأن أخبار الإخباريين والرواة والمحدثين أخبار ظنية تحتمل الصدق والكذب لذلك كانت أحاديث رسول الله حجة على من سمعها منه في عصر التنزيل واكتمال الدين، أما بعد وفاته فقد نقلتها لنا منظومة التواصل المعرفي على هيئة أخبار ظنية ومرويات مذهبية من حق المسلم أن يقبلها أو يرفضها لأنها لا تحمل حجيتها إلا بسند من الرواة أي لا تحمل حجيتها في ذاتها"([1]).

ويختم كتابه "السنة النبوية حقيقة قرآنية" بقوله ما نصه: "فقد بلغ عدد الآيات المستخلص منها هذه السنن ١٧٩٠ آية تقريباً من مجموع آيات سور القرآن الحكيم، والبالغ عددها ٦٢٣٦ آية. أي أن ما أوْرَدته من سنن مستخلصة من آي الذكر الحكيم هو فقط ٢٩% تقريباً من مجموع هذه

[1] - محمد السعيد، إشكاليات الخطاب الديني، ص ٤١٤، ٤١٥.

الآيات. والسؤال: هل عمل المسلمون أولاً بهذه النسبة التي جاءت بها هذه الدراسة؟ وكذلك ما جاءت به الـ ٧١% المتبقية من آي الذكر الحكيم والتي لم تشملها هذه الدراسة، قبل أن يذهبوا إلى كتب الحديث المذهبية ليستخرجوا منها ما صح وما لم يصح من سنن ظنية الثبوت عن رسول الله قد أصابها الباطل ولا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى"أ.هـ([1]).

وقال ما نصه: "إن علماء السلف لم يكن لديهم أجهزة تسجيل صوتية، ولم يدون رسول الله أحاديثه في كتاب"([2]).

تلك هي أقوال من أقوال محمد السعيد نقلناها عنه بحروفها، وقلبنا يرتجف حياءً من الله ونستغفر الله من حكايتها. إن الضرورة إلى نقلها لنقضها والتحذير منها هي معذرتنا إلى ربنا نستغفر الله .. نستغفر الله.

وأعود فأذكر بأن الأرجوفة الأخيرة من أراجيف السعيد هي أخطرها جميعاً، وقد دونها في كتبه الثلاثة التي صودرت وهي (١- لا إله إلا الله عقيدة وشريعة، ٢- محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صفات الكمال البشري، ٣-إشكاليات الخطاب الديني)، فعاد ونشر موجزاً لها بعنوان "السنة النبوية حقيقة قرآنية"([3])

وكما سبق القول فإن هذه الأرجوفة الأخيرة هي مركز الدائرة التي تدور حولها أفكار السعيد كلها، وهي قاعدة منهجه الفكري الذي ينطلق منه مصوباً سهامه إلى سنة الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم.

---

[1] - محمد السعيد، السنة النبوية حقيقة قرآنية، ص ٥٤٨.
[2] - محمد السعيد، لا إله إلا الله عقيدة وشريعة، ص ١٨٢.
[3] - الناشر دار مصر المحروسة ١٣ش قولة – عابدين – القاهرة.

الفصل الثاني

الرد على شبهات وأراجيف ابن مشتهري

المبحث الأول

الأرجوفة الأولى

إن دعوى قصر مهمة النبي – صلى الله عليه وسلم – على تطبيق - تفعيل - النص القرآني، وادعاء أن السنة حقيقة قرآنية أو نصوص قرآنية هي حيلة مكشوفة وخدعة ماكرة تصور صاحبها أنه باللجوء إليها يكون قد توصل إلى غرضه بإلغاء السنة النبوية وإهدارها بطريقة مهذبة والتفافية بحيث لا تصدم مشاعر المسلمين بشكل مباشر ولا تفتح عليه أبواب جهنم لأنه يعلم مدى تقدير الجماهير واعتزازها بنبيها - صلى الله عليه وسلم - وسنته المطهرة وهو الأمي الذي علم المتعلمين.

ولست أدري كيف سولت لابن مشتهري نفسه أن يشطب سنة الحبيب محمد – صلى الله عليه وسلم – من الوجود، مع أن كل الأمم تتلهف على كل كلمة تصدر عن القادة والعظماء والخطباء فيها.

و محمد السعيد يريد نبيًا مهمته تطبيق نصوص القرآن فهي وحدها التي سنها الله، أما أن يسن أويقول أو يشرع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلا عبرة بقوله، ولا احقية له في التشريع،

وعليه أن يصمت فلا يتكلم، أو حسب تعبير (صبحي منصور) – كبير دعاة القرآنية – [هو – أي الرسول صلى الله عليه وسلم – مجرد بوسطجي مهمته نقل الخطابات دون التدخل فيها][1].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الصف: ٨ - ٩

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ النجم: ١ - ٤

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ الحشر: ٧

لقد صنع الله رسوله على عينه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب وجوامع الكلم وبلاغة البيان، ومن ذا الذي يجادل في كون بلاغته - صلى الله عليه وسلم - فوق كل بلاغة وحجته دونها كل حجة، حتى أن أصحاب الملكة اللغوية السليمة وخبراء اللغة يعرفون دون عناء أوجهد كلامه من كلام غيره.

---

[1] - انظر كتاب منكري السنة – أبو إسلام أحمد عبد الله – بيت الحكمة للإعلام والنشر والتوزيع – القاهرة.

ولعلنا نذكر أن أحد علماء الغرب من غير المسلمين وضع مقاييس دقيقة لمعرفة العظماء من أهمها مدى التأثير في الناس وانتهى به البحث العلمي الموضوعي إلى ان العظماء مائة أعظمهم محمد – صلى الله عليه وسلم –.

أما استخفاف ابن مشتهري بالسنة لأن الله لم يشأ لها الحفظ كما حفظ كتابه هو افتراء على الله وهي مغالطة وسفسطة.

فالصحيح أن الله حفظ كتابه بما أراد له من حفظ في الصدور والسطور فور نزوله ونحن متعبدون بتلاوته وترتيله بحرفه كما نزل.

أما ما أراده الله لحفظ سنة نبيه فهو أن قيض لها رجال وثقوها وكتبوها بإذن من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومنهم من أذن له في حياته صلى الله عيه وسلم بكتابة السنة على النحو الذي فصلناه في كتابنا "الرد على القرآنيين".

وقد تم جمع أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - من السطور والصدور وتدوينها في عصر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، وتمت غربلتها وطرد كل دخيل عليها بدأب ومهارة ومنهج جديد في البحث العلمي([1]).

---

[1] - أنظر كتابنا "الرد على القرآنيين دفاعا عن سنة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم" الناشر دار الصفا والمروة - ١٩٩٨.

إن السنة هي المحفظة الكبرى للإسلام وهدمها هو هدم للشريعة الإسلامية كلها، والمجاهرة بالدعوة إلى ذلك هو تقويض للبناء الإجتماعي والقانوني كله.

فليستعد محمد السعيد إذاً لينشئ لنا بناءً اجتماعياً جديداً ومنظومة قانونية جديدة، وليقل لنا كيف نصلي؟ كيف نزكي؟ كيف نحج؟ وبالجملة كيف نعبد ربنا؟ فإن قال لابأس هنا من الأخذ بالسنة لأن في ذلك تفعيل للنصوص القرآنية .. فكيف إذن والنصوص القرآنية جاءت على سبيل الإجمال؟ ثم أليس الرجال الذين أخذنا عنهم السنن العملية هم هم الذين أخذنا عنهم السنن القولية والتقريرية؟!
ولإن قال لنا إذاً لا مناص من الأخذ بالسنن العملية فجوابه.. أليست السنن العملية هي أيضاً أخبار تلقيناها بالتواتر؟!

ماذا تريد يا ابن مشتهري من رجالنا أكثر من العدالة والتقوى والضبط وقوة الحفظ؟!

سيقول لنا على طريقة الشك السوفسطائي وما أدراني وقد وثقهم بعض من تسمونهم علماء الحديث ولم يوثقهم الآخرون؟!.

نقول وهل ذنب هؤلاء السادة أنك لا تعرف قواعد الترجيح عند الاختلاف، ولو أنصفت فقد أغناك غيرك كصاحب ميزان الاعتدال والبخاري وغيرهما، فهلا رجعت إلى هؤلاء الجهابذة؟!

سيقول د/محمد السعيد: قلت لك أنا لا أعترف بعلماء الحديث ولا أعترف من الأصل بشيء اسمه أهل السنة والجماعة. فإذا قلت له: لماذا وهم الألي؟ سيتنقل بك إلى أرجوفة أخرى.

المبحث الثاني

الأرجوفة الثانية

إن ما ذهب إليه دعاة وأدعياء القرآنية من طرح السنة على العقل، فما قبله العقل أمضيناه، وما رفضه العقل نحيناه، هي فكرة جهنمية مدمرة للدين، فكيف نرد الأحاديث لمجرد مخالفتها لعقل من العقول، فلا شك أن العقول تتفاوت من حيث الفهم والفقه والعلم، وقد تعصف بها الأهواء والعصبيات والعوارض، فأي عقول تلك التي نأتمنها على الحديث الشريف، لا شك أنها عقول علماء الحديث وليس علماء الطب أو الكيمياء أو التجارة والزراعة.

كما أن ما يرده عقل قد يقبله عقل آخر طبقاً لتفاوت العقول والطبائع والبيئات.

إن التطاول على أحاديث صحيحة وثابتة في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما تحت دعوى العقلانية لا يقبلها عقل المسلم، ذلك أن هذه الصحاح قبلتها الأمة وانعقد عليها إجماعها، لاسيما صحيح البخاري الذي أجمعت الأمة على قبوله واعتباره أصح كتاب على وجه الأرض بعد القرآن الكريم.

وغني عن البيان أن نقول أنه لا يجوز خرق إجماع الأمة، وهو المصدر الثالث للتشريع الإسلامي، والأمة لا تجتمع على باطل ولا خطأ ولا ضلال كلها، فهذا محال شرعاً لقوله صلى الله عليه وسلم

"لا تجتمع أمتي على ضلالة"([1])، ولقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ النساء: ١١٥، وسبيل المؤمنين هو إجماع الأمة كما نص على ذلك الإمام الشافعي.

ترى هل تكون الأمة طوال مسيرتها الطويلة على ضلال لقبولها للبخاري؟!

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الأحاديث التي زعموا أنها منافية للعقل هي في الحقيقة غير منافية للعقول السليمة المجردة عن الهوى، والأحاديث الصحيحة التي ظنوا أنها تعارض القرآن كذلك إنما هو سوء الفهم وهوى النفس.

ولنأخذ أمثلة على ذلك..

المثال الأول: مباشرة الحائض:

فهم يذكرون روايات عائشة وغيرها من زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يأمرها أن تتأزر وهي حائض ثم يباشرها.

[1] - متفق عليه.

وهو هنا يرد هذه الأحاديث بدعوى أن أن القرآن أمر باعتزال النساء في المحيض، وهو بذلك يرد ليس فقط مئات الأحاديث الصحيحة، بل يرد إجماع الأمة الإسلامية منذ الصحابة وحتى اليوم، بأن المقصود باعتزال المرأة الحائض هو اعتزال جماعها فقط، وليس أي شيءآخر.

ومعنى المباشرة الذي في الحديث معروف من اللغة، فالمباشرة من البشرة أي اللمس ونحوه من قبلة ونحوها، وائتزارها معناه لبس الإزار، ومعروف أن الإزار هو ما يغطي وسط الإنسان وحتى أسفل جسمه، أي أن معنى الحديث لا يتضمن أي جماع من قريب أو بعيد كما فهم الكاتب.

المثال الثاني: الإدعاء الكاذب بأن البخاري روى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - راود امرأة عن نفسها اسمها الجونية.

وهذا أيضاً ناجم إما عن افتراءٍ محض أو جهل أو سوء فهم، لأن الجونية هذه كانت زوجة للنبي صلى الله عليه وسلم – عقد عليها ولم يدخل بها – إذ عندما دخل عليها قالت أعوذ بالله منك، فقال لها: لقد عذت بمعاذ، وسرحها.

المثال الثالث: الادعاء بأن البخاري روى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - صلى بغير وضوء، وهو ادعاء كاذب أيضاً بإجماع الفقهاء أن النوم الخفيف لا ينقض الوضوء لحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذلك.

أفنأخذ ديننا عن أدعياء القرآنية أم عن سيد البشرية.

المثال الرابع: الافتراء على البخاري بأنه قال أن النبي - صلى الله عليه وسلم - شرب النبيذ، إذ الحديث كما رواه البخاري أن النبي - صلى الله عليه وسلم - شرب تمراً أنقعت له، وهذا شراب غير محرم، وهو غير النبيذ المعروف الآن وهو المُسْكِر، وقد نهى - صلى الله عليه وسلم - عن شرب النبيذ (أي المنقوع) إذا اشتد، أي إذا تخمر وصار مسكراً، فنبيذ الخمر هو المنهي عنه، وهو يختلف تماماً عن النبيذ بمعناه اللغوي – وهو كل منقوع –.

المثال الخامس: يقولون أن السهو يتنافى عقلاً مع مقام النبوة، وبالتالي يردون حديث البخاري في ذلك مع أن الله تعالى أثبت بشريته - صلى الله عليه وسلم -، كما في قوله تعالى﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ الكهف: ١١٠

وفي ذلك يقول العلماء أن سهو النبي - صلى الله عليه وسلم - من التشريع ليعلم الأمة، ومن المعلوم أن من وسائل التعليم الحديثة التمثيل والمحاكاة، فهي أثبت وأبلغ.

المثال السادس: لم يقف الأمر عند هذا الحد – حد طرحهم السنة على عقولهم – بل تعداه إلى الافتراء والكذب في استهتار بالغ، الافتراء

الرهيب على البخاري بأنه يروي إسرائيليات لا يقبلها العقل، فكتب د/محمد السعيد في مجلة المصري المصرية يزعم أن في البخاري إسرائيليات، وتأخذك الدهشة ودوار الرأس فتسأل في لهفة وغضب معقول! في أي موضع من البخاري؟ وأين؟ فيجيبك د/محمد السعيد: إن في البخاري اسرائيليات لأنه يروي عن أبي هريرة، وأبو هريرة روى عن كعب الأحبار – اليهودي الذي أسلم – وبما أنه فعل ذلك فيكون ذلك كذلك، لكن د/محمد السعيد أنطقه الله الذي انطق كل شيء فاعترف بأن كعباً لم يعاصر النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأن كعباً أسلم متأخراً في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، لكن د/محمد السعيد رغم هذا الاعتراف قال في جرأة وقحة: إن رواية الأصاغر عن الأكابر جائزة، وهو يريد بذلك وفي إشارة خبيثة ماكرة أن يخدع الجماهير، وأن يلقي في أدمغة غير المتخصصين أن كعباً يروي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبي هريرة يروي عن كعب، لكنها خدعة كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، إن د/محمد السعيد نفسه يعترف أن كعباً لم يسمع من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؛ فكيف يروي أبي هريرة عن كعب أحاديثاً لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع أن أبو هريرة وجميع الصحابة يعرفون أن كعباً لم يعاصر النبي – صلى الله عليه وسلم –؟! إن هذا يخالف المنطق والمعقول.

إن كل ما في الأمر أن أبا هريرة سمع من كعب كما سمع غيره من معاصريه بعض الحكايات الواردة في الإسرائيليات، وحكاها عنه، ونسبها إليه، لكن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – منع كعباً من

حكاياته – التي لا علاقة لها بالسنة – باعتبار أن في القرآن والسنة كفاية وبهما من المواعظ ما يغني عن غيرهما.

إن د/محمد السعيد إذن يفتري على الله الكذب ويلجأ إلى التلفيق الذي لا تخطئه أعين أولي الألباب، ولسنا ندري كيف سولت له نفسه إقحام البخاري في هذا الشأن، لقد أسرف د/محمد السعيد على نفسه وأوردها المهالك باستدلالاته الفاسدة الكاذبة وتلفيقاته الماكرة وقياساته الأشد مكراً وفساداً التي تنضح بالحقد على سيد الحديث الإمام البخاري.

وهكذا كل حديث رده دعاة القرآنية بدعوى اللامعقولية فإننا بمناقشته نجد أن الأمر يتعلق بعقولهم هم، وهي عقول رُكِّبَت تركيبة نكدة مضادة لسنة الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم-.

المثال السابع: ومن الأحاديث أحاديث لايمكن فهمها إلا بوضعها في سياقها من مجمل النصوص الشرعية، من ذلك مثلاً:الأحاديث الواردة في القضاء والقدر إذ الثابت أن العلم الإلهى مسطور في كتاب مطابق شامل محيط، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ الحج: ٧٠.

وهذا الكتاب يضم عالمي الغيب والشهادة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ...عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ ﴾ سبأ: ٣.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ...وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ ﴾ الأنعام: ٥٩.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ الملك: ١٣ - ١٤.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ الحديد: ٢٢.

وهذا العلم الإلهي القديم يشعر الإنسان بالراحة والسكينة والطمأنينة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ التوبة: ٥١.

إن هذا العلم الأعلى يتناول ملكوتاً واسعاً نشغل نحن البشر حيزاً صغيراً منه، والأقدار حولنا تصنع الكثير مما نفهم ومما لا نفهم،

ومطلوب منا أن نصبر في البأساء والضرّاء وأن نشكر في النعماء والسرّاء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ الملك: ٢ ، فهذه أقدار تجرى علينا لا يد لنا فيها وهي ابتلاء يكشفنا أما أنفسنا وأمام الآخرين أجزعنا أم صبرنا، وهذا النوع من القضاء والقدر نقول فيه قدر الله وما شاء فعل؛ وننظر في الأحداث الماضية فقط بغرض أخذ العبرة والعظة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿...فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ الحشر: ٢ ، فتغمر أنفسنا السكينة ويملؤها الرضا مهما كان الخطب، وهذه الأقدار الخارجية الواقعة علينا ولا يد لنا فيها، نحن أمامها مجبورون فمن ذا الذي يتحكم في رزقه أو أجله، أو في لونه وطوله وعرضه!!، ومع ذلك فهناك نوع آخر من الأقدار المسطورة في كتاب الله الأزلي بمقتضى أنه تعالى عليم حكيم، وهي الأقدار التى تتعلق بإرادتنا وما يصدر عنا من أفعال وأقوال وإعلان وإسرار وإخفاء وهي التي نُسأل عنها ولا مجال فيها للإجبار لأن المسئولية إنما تكون لمن أعطي حرية الاختيار وكأن الكتاب الإلهي هنا بمثابة مرآة ينعكس عليها كل ما يصدر عنا، أو هي كاميرا تلتقط صوراً لنا، أو إن شئت قل كأننا كتاب مفتوح لا يخفى منه شئ من سطوره ولا حروفه على خالقنا - جل وعلا - إنه كتاب علم لا إجبار فلا يسوغ لأحد أن يعصي الله ثم يقول لو أراد الله لي الهداية لاهتديت، لا يسوغ ذلك وقد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ ...﴾ الأنعام: ١٠٤ ، و قَالَ

تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴾ الكهف: ٢٩ ،

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ الإنسان: ٣ ، و

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ البلد: ١٠.

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن

زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ الشمس: ٧ - ١٠.

فعلمه السابق الذي لا يتخلف وبمشيئته تعالى شاء أن تكون لنا مشيئة، وفي إطار تلك القاعدة الكلية التي جاء بها القرآن في مسألة القضاء والقدر ينبغي أن نفهم كل حديث صح عن رسول الله من أحاديث القضاء والقدر من مثل قوله -صلى الله عليه وسلم-:" إن الله -عز وجل- خلق للجنة أهلاً وخلق للنار أهلاً" يجب أن نفهمها في ضوء قوله تعالى :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ

ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ النجم: ٣٩ - ٤١.

المثال الثامن: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ ... ﴾ البقرة: ٢٢٣ ، و قال تعالى قمعاً لغرائز السوء وتذكيراً بمصائر الهالكين: ﴿ أَتَأْتُونَ

ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦.

والحرث مكان البذر لا غير، لا يقول بغير ذلك أحد يعرف لغة الوحي، إلا أن رواية نافع يفهم منها أن الرجل يستطيع أن يتجاوز ذلك من زوجته، إنها كبوة جواد، ولكل جواد كبوة، ونافع – غفر الله لنا وله – برأيه هذا أو بروايته يخالف دلالات القرآن وسنناً أخرى أثبتها الرواة، كما يخالف طبائع الأحياء، فمع أن القول عن نافع صاحب السلسلة الذهبية الأعلى كعباً في مقام الأسانيد، إلا أن روايته غير مقبولة لأن المتن يعارض القرآن ويعارض صحاح في السنة.. صحيح إن لكل جواد كبوة.

المثال التاسع: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ النجم: ٤٥ - ٤٦ ، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ القيامة: ٣٦ - ٣٩ ، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٍ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الإنسان: ٢ .

وبتجارب علمية عديدة ثبت أن تكوين الجنين وتحديد صفاته يساهم فيه الذكر والأنثي، وعن أبيه وعن أمه وأجداده يأخذ

صفاته، حيث استبان للعلماء أن الخلية الأولى الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة – بويضة المرأة التي اخترقها كائن حي يوجد في ماء الرجل "المنيّ" – عبارة عن كتاب ضخم يحوي جميع ما سوف يكون عليه الإنسان من صفات خِلقيه، وخُلقيّة، قرابة الخمسين ألف صفة وراثية في هذه الخلية، إنها الخريطة الوراثية العجيبة التي تمتد إلى أبعد من الأب والأم لتصل إلى الأجداد والجدات القريب منهم والبعيد.

إذن تحديد نوع المخلوق أذكر هو أم أنثى فمرده إلى ماء الرجل، وهو ما يطلق عليه في اللغة المنيّ، وفي التعبير القرآني قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) ﴾ القيامة: ٣٧ – ٣٨.

أما عملية الخلق والتكوين عموماً – تحديد الصفات – فمردها إلى الأب والأم معاً، وحسب التعبير القرآني قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا (٢) ﴾ الإنسان: ٢.

ومن لطيف ما رأى علماء الأجنّة عن طريق الأجهزة الحديثة تلك الرحلة الشاقة المهلكة التي تسافر فيها الملايين من الكائنات المنوية – أربع مائة مليون في الدفقة الواحدة – تسافر عبر دهاليز الرحم ومغاراته وانحناءاته وممراته الضيقة إلى حيث الموقع الذي هبطت إليه تلك المدللة الفاتنة نطفة امرأة – بويضتها – وبعثت بريحها العطرية إلى تلك الملايين من المخلوقات المنوية الحية،

فجذبتها وشدتها وجعلتها تهرع إليها وتلبي دعوتها وتطمع في وصالها مهما كانت التضحيات عبر طريق شاق وطويل حيث يضل الطريق من يضل ويسقط من يسقط من شدة الإعياء، فإذا قاربت الرحلة على النهاية لا يكون قد تبقى إلا قلة من الأشداء بعد هذه الحلة المهلكة والتزاحم والتدافع والتسابق للمرو من أضيق الممرات – ممر أضيق من سم الخِيَاط – فيصل الأقوى إلى خدر الملكة المدللة المسماة بالبويضة التي تروغ وتزوغ وتهرب وتحاور وتناور فيما يشبه مناورات الطائرات أو ماتفعله ملكة النحل وكأنها عشقت احداً منهم وقالت لا أريد سواه، أحياناً تصل إلى مرادها وتسبق هي إلى من رغبت فتلتحم به، وأحياناً يسبقها جبارٌ من الجبابرة وقوي من الأقوياء الذين نجحوا في الرحلة فتسلم نفسها إليه وتذعن له فيمتزج بها ويلقحها ويحسم المسابقة أو بالأحرى المعركة الرهيبة، وبطريقة كيميائية أو كهربائية تقفل البويضة أبوابها في وجه من بقي من الفرسان([1]).

فهنا اتفق العلم والقرآن ومعهما السنة النبوية الصحيحة على هذه الحقائق.

أما عن السنة "حدثنا محمد بن سلام: أخبرنا الفزاري، عن حميد، عن أنس رضي الله عنه قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل

[1] - أنظر "التربية الراقية" شافع توفيق محمود – تحت الطبع.

الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خبرني بهن آنفا جبريل). قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد: فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها). قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أي رجل فيكم عبد الله بن سلام). قالوا: أعلمنا، وابن أعلمنا، وأخيرنا، وابن أخيرنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفرأيتم إن أسلم عبد الله). قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فقالوا: شرنا، وابن شرنا، ووقعوافيه.([1])

وجاء في مسند أحمد – مسند أنس بن مالك – رضي الله عنه "حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا ابن أبي عدي عن حميد عن أنس: - أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة فقال يا رسول الله إني سائلك عن ثلاث خصال لا يعلمهن إلا نبي قال سل قال ما أول أشرط الساعة وما أول ما يأكل منه أهل الجنة ومن أين يشبه الولد أباه وأمه فقال رسول الله صلى الله عليه

[1] - صحيح البخاري – كتاب الأنبياء – والحديث رواه أيضا مسلم.

وسلم أخبرني بهن جبريل عليه السلام آنفا قال ذلك عدو اليهود من الملائكة قال أما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب وأما أول ما يأكل منه أهل الجنة زيادة كبد حوت وأما شبه الولد أباه وأمه فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها قال أشهد أن لا اله إلا الله وأنك رسول الله وقال يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامي يبهتوني عندك فأرسل إليهم فاسألهم عني أي رجل ابن سلام فيكم قال فأرسل إليهم فقال أي رجل عبد الله بن سلام فيكم قالوا خيرنا وابن خيرنا وعالمنا وابن عالمنا وأفقهنا وابن أفقهنا قال أرأيتم إن أسلم تسلمون قالوا أعاذه الله من ذلك فخرج ابن سلام فقال أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله قالوا شرنا وابن شرنا وجاهلنا وابن جاهلنا فقال ابن سلام هذا الذي كنت أتخوف منه.

إلا أن الشيخ الغزالي رحمه الله وهل – أيَ أخطأ وغلط – فاعترض على هذا الحديث الذي هو في غاية الصحة والذي هو معجزة بكل المقاييس فخيل إليه أن هذا الحديث يعارض القرآن ويعارض حقائق العلم إذ التبس عليه الأمر فوهم أن المقصود بماء المرأة – المشار إليه في الحديث – هو الماء الذي ينزل منها عند قضاء الوطر، ومحال أن يكون هذا هو مقصد من لا ينطق عن الهوى، ذلك أن النطفة تطلق على ماء الرجل – لما فيه من حياة ويسمى منيّ يمنى –، أما ماء المرأة فلا يسمى في اللغة مني، وإنما يعبر عنه بالماء إذا قُصِدَ به ذلك الماء الذي هو مجرد سائل يبلل موضع الحرث عند الجماع، وهو ماء لا يحمل أي كائن حي، فإذا

قال النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو يتحدث عن عملية الخلق التي يتكون منها الولد فهو يقصد البويضة لأن البويضة أيضاً ماء، أو بلغة أدق هي وسط مائي يعيش فيه كائن حي تماماً كما أن المني وسط مائي يعيش فيه كائن حي، ودليلنا على ذلك قول الله تعالى عن عملية الخلق التي هي من الرجل والمرأة معاً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ المرسلات: ٢٠ ، وقال أيضاً: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ السجدة:٧- ٨ ، أي أن ماء المرأة بويضتها وماء الرجل منيه.

ودليلنا أيضاً حديث أحمد في مسنده أن يهودياً مر بالنبي – صلى الله عليه وسلم -، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي، فقال لأسألنه عن شيءٍ لا يعلمه إلا نبي، فقال يا محمد: مم يخلق الإنسان؟، فقال – صلى الله عليه وسلم –: يا يهودي من كلٍ يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فقال اليهودي: هكذا كان يقول من كان قبلك (أي الأنبياء)، فهذا الحديث يتطابق أيضاً مع النص القرآني "من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا"، فالأمشاج هي الخليط بين النطفتين أو امتزاجهما، إن نصوص القرآن والسنة في هذا الصدد نصوص معجزة بكل المقاييس إذ تقرر حقائق لم يتوصل إليها العلم إلا في العصر الحديث ولا معارضة بينها.

فشتان بين ما ذهب إليه الشيخ الغزالي، وما تخرص به محمد السعيد عبد الطيف مشتهري، فالشيخ الغزالي يجل السنَّة أيما إجلال، والدكتور السعيد ينكرها أعظم إنكار.

إن ما تصوره الشيخ الغزالي – رحمه الله – من أن حديث ابن سلام يعارض آي القرآن هو كبوة جواد لإمام من أئمة الدعوة في عصرنا الحاضر لا تنال من قدره ولا عطائه، والرجل بكل صدق وتواضع قرر أنه ليس من علماء هذا الفن – علم مصطلح الحديث، وأنه يعرف صحيحه بما أوتي من ملكةٍ وخبرة طويلة في مجال الدعوة، وهو عذر مقبول.

إننا نعود فنؤكد أن حديث بن سلام الذي رواه البخاري وأحمد هو حديث في غاية الصحة سنداً ومتناً، وهو يشرح النص القرآني ولا يعارضه.

وبحسبنا أن نذكر للشيخ القاعدة التي قررها من أن اليقين الثابت بالوحي والعلم لا يجوز أن يتقدم عليه ظن علمي يرويه حديث آحاد، إن حديث الآحاد يتأخر حتماً أمام النص القرآني وأمام الحقيقة العلمية والواقع التاريخي، أو يتأخر كما يقول المالكيون أمام عمل أهل المدينة، وأمام القياس القطعي كما يقول الأحناف.

لكننا نضيف إلى ذلك أن السنة التي تروى بالسند المتتابع المتصل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم – ولم يسقط من السند أي راوٍ من رواتها يقسمها جمهور العلماء إلى قسمين (متواترة

وأحاديـة)، ويقسمها الأحنـاف إلـى متـواترة وأحاديـة ومـشهورة، و المتواترة هي الأخبار التي تصلنا برسول الله اتصالاً بلا شبهة حتـى صار الخبر كالمعاين المحسوس المسموع منه صلى الله عليه وسلم إذ يرويها قوم لا يحصى عددهم ولا يتوهم طواطئهم علـى الكذب لكثرتهم وعدالتهم وتباين أمكنتهم، وبالتالي فهي تفيد اليقين بل عين اليقين وحتميته كاليقين بثبوت القرآن تماماً، أما السنة المشهورة – وهي التي ينقلها عدد يستحيل طواطئهم على الكذب عن صحابي من أصحاب النبـي – صلى الله عليه وسلم – فهي تفيد أيضاً اليقين بحصول قوله – صلى الله عليه وسلم – لكن ليس بنفس درجة السنة المتواترة، ويطلق علـى اليقين بحصول الأخبار المشهورة "علم الطمأنينة"، لذا وجب عند الأحناف تقييد مطلق القرآن الكريم بالسنة المشهورة "المستفيضة"، وقال شيخنا محمد فرغلي أن من ينكر الحديث المشهور يجب أن يستتاب.

وحديث الآحاد وهي الخبر الذي لم يبلغ نقلته من الكثرة مبلغ التواتر أو الاستفاضـة وروي عن صحابي يقول علماؤنا أنـه يفيد الظن ويقصدون الظن الراجح ، أي أننا نكون على يقين بحصول الخبر، ولكن بالطبع بدرجة أقل من اليقين الذي يفيده التواتر أو الاستفاضة لاسيما إذا تلقته الأمة بالقبول، وأجمعت على العمل بمقتضاه ورواه عدل، إذ الأمة لا تجتمع على ضلالة.

ونرى أنه لا بأس من الأخذ بحديث الآحاد بشرائطه في أمور العقيدة والغيب لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ ﴾الحجرات: ٦.

وطبقاً لمفهوم المخالفة فإن الآية تدل على أن الواحد العدل إذا جاء بخبر فالحجة قائمة بخبره ولا نحتاج إلى القرائن المُثبتة له، كما وأن خبر الواحد يفيد العلم واليقين إذا تلقته الأمة بالقبول([1]).

إن الشيخ الجليل – الشيخ الغزالي – يبجل السنة أيما تبجيل واسمع إن شئت قوله "وأما السنّة فأوجز ما يقال فيها أنها: تنزيلٌ من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم، وقد أوتي محمد جوامع الكلم، وانسابت هداياته من ينبوع جياش بالرشد حافل بالخير، وسبحان من أبدع محمد – صلى الله عليه وسلم –، إنه الإنسان الفذ الذي صان الإيمان مادة ومعنى وعاش به سيرة ودعوة، وأقام على دعائمه مجتمعاً ودولة، وأنشأ باسمه حضارة ترنو إليها المشارق والمغارب، ويرهب بأسها المعتدون والفوضويون.. والثقافة الإسلامية قامت على الكتاب والسنة معاً، وقد يأست الشياطين من تحريف الكتاب فحاولت النيل من السنة، ولكن العلماء النقدة صدوا هذا الهجوم، ومضوا بقافلة الإسلام منيعة الجوانب على حين طاشت

[1] - انظر كتاب "الرد على القرآنيين" – شافع توفيق محمود – دار الصفا والمروة بالإسكندرية – ٢٠٠٨.

رسالات، وحالت رسوم، ولا نزال – بفضل الله – نحرس الإسلام ولن تخل الأرض من قائم لله بحجة، ولا أعرف أحداً من علماء الإسلام هون من مكانة السنة النبوية، وأجاز أن يقول رسول الله كلمة، ويمضي هو على خلافها، بل ذلك طريق الكفر، وما قد يقع بين العلماء من شجار في القضايا الفعية أساسه: أقال سول الله – صلى الله عليه وسلم – هذا الحديث أم لا؟، فقد تقول: رسا علم المصطلح واتضحت منه أسس القبول والرد بشتى المرويات، ونقول: صدقت وذلك ما نريد تطبيقه لا غير، **إننا نلتزم بما وضع أئمتنا الأولون، ولا نفكر في البعد عنهم**، كل ما لفتنا النظر إليه أن الشذوذ والعلل في متون الأحاديث يتدخل فيهما الفقهاء إلى جانب الحفّاظ، وقد تدخلوا فعلاً في الماضي، وجد في عصرنا ما يستدعي المزيد من البحث والاستقصاء...،"([1])

[**المثال العاشر:** قالو أن حديث فرضية الصلاة خمساً بعد أن كانت خمسين يتعارض مع قوله تعالى:﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾([2])

قصور علمي؟ وماذا يقول هذا الباحث عن هذه الآية ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ عندما يجد أختها تقول قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

[1] - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث – الشيخ الغزالي.
[2] - ق: ٢٩.

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [1]، أليس في النسخ تبديل للقول؟ هل هم بهذا فهموا القرآن؟

هل يقول الباحث إن أحد النصين أو كلاهما مكذوب ثم ينتقل فيقول: وحيث وجد الكذب في الأحاديث حكمنا على الأحاديث كلها بأنها مكذوبة لا نعتمد عليها ونكتفي بالقرآن؟

المثال الحادي عشر: قالوا أن حديث شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة لأبي طالب وتخفيف جزاءه معارض لقوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [2].يقطع الآية عن سابقها ولاحقها كمن يقف عند قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ﴾ [3] إن الشفاعة لا تنفع المجرمين الذين لا يطعمون المسكين ويخوضون مع الخائضين وليس منهم أبو طالب، لا تنفع الذين يريدون أن يؤتى كل منهم صحفاً منشرة وليس منهم أبو طالب.

المثال الثاني عشر: قالوا أن أحاديث عيشة النبي – صلى الله عليه وسلم – في بيته عيشة الكفاف معارضة لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا

---

[1] ـ البقرة: ١٠٦.
[2] ـ المدثر: ٤٨.
[3] ـ الماعون: ٤.

﴿فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾ ([1])

وجهل أن عيشة النبي الكفاف متواترة المعنى.

المثال الثالث عشر: قالوا أن أحاديث شراء الشعير من اليهودي مع تأجيل الثمن ورهن درعه عند اليهود يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾([2])، والظاهر أن هذا المجدد لم يقرأ شيئاً من التفاسير والسير وأنه – صلى الله عليه وسلم – كان لا يملك شيئاً قبل أن يتاجر في مال خديجة، وأنه بعد أن أغناه الله وفرض له خمس الغنائم كان ينفق ما يملك على أهل الصُفَّة وغيرهم وفضّل لنفسه عيش الكفاف.

المثال الرابع عشر: قالوا أن حديث فضل عائشة على نساء العالم كفضل الثريد على سائر الطعام يتعارض مع ثناء القرآن على آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران. وهل الثناء على بعض الأفراد يتعارض مع الثناء على غيرهم. ألم يقرأ في التفاسير أن المراد عالم زمانها؟

المثال الخامس عشر: قالوا هل من معقول أن الرسول يعرج به إلى السماء ويستشير موسى عليه السلام فيدله على خيره؟ هل موسى أعلم من محمد؟ ولم لا يكون أعلم في هذا الجزئية المبنية على سبق

---

[1] - الضحى: ٦ – ٨.
[2] - الضحى: ٨.

الخبرة والتجربة؟ ومن الواضح أن هذا المجدد لا يعلم شيئاً عن قاعدة: "الخصوصية لا تقتضي الأفضلية".

المثال السادس عشر: وقالوا هل معقول أن محمداً يعرج به إلى السماوات، وتفتح له أبوابها وهي لا أبواب لها؟

نقول لهم ماذا تقولون في قوله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾(١)، افتح المصحف واقرأ الآية ١١من سورة القمر إن كنت لا تحفظ القرآن.

المثال السابع عشر: يقولون: هل معقول أن الملائكة تشق صدر محمد وتغسله بماء زمزم؟ لِمَ لَمْ يخلق صالح الصدر وهو في بطن أمه؟ ولِمَ لَمْ يخلق منكري السنة مؤمنين بما جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم -؟

المثال الثامن عشر: ويقولون: هل معقول أن يلقى الرسول آدم والأنبياء في المعراج.

ونقول لهم: وهل من المعقول أن تؤمنوا بلقاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – لجبريل وتلقي منه القرآن؟

هل تعقلون هذا ولا تعقلون ذاك؟

المثال التاسع عشر: ويقولون: هل معقول أن محمداً رأى الشيطان وأمسك به وقدر عليه، ثم أطلقه؟ ونقول لهم: لماذا لا تعقل هذا وقد عقلت تسخير الجن لسليمان؟ قال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ

---

١ ـ القمر: ١١.

ٱلرَّجِيمِ ﴾ ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ (٣٩) ﴾ ([1]).

المثال العشرون: ويقولون: هل من المعقول أن عمر يستسقي بالعباس مع أن ذلك شرك صريح؟.

ونقول لهم لو فهمتم معنى يستسقي فهماً صحيحاً لعقلتم ما فعل عمر.

فمعني يستسقي "أي يدعوا الله أن يسقيهم"، ولو أني توسمت الصلاح في أي مسلم على قيد الحياة لطلبت منه أن يدعو لي.]([2])

المثال الحادي والعشرون: ويقولون: هل من المعقول أن الجزع الذي كان يخطب عليه النبي – صلى الله عليه وسلم – بكى حين تركه؟

إن هذا الحديث ومثله مما جاء في الأمور الغيبية لا يسع المؤمن إلا أن يؤمن به تماماً كما يؤمن بكل غيب جاء في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما أن التعارض بين السنة والقرآن أمر مستحيل لأن القرآن كلام الله، والسنة هي نوع من الوحي ولكنها وحي غير متلو لأن الموحى فيها هو المعنى فحسب، وتتم بوحي جلي وبوحي خفي بواسطة وبدونها أي بإلهام في اليقظة أو في المنام.

---

[1] - ص: ٣٧ - ٣٩

[2] - تجديد الدين – أ.د. موسى شاهين لاشين – بحث مقدم للأمانة العامة لجائزة الأمير نايف – وحاصل على الجائزة الأولى.

فلقد وكلت الصياغة اللفظية فيها إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وتعبير النبي – صلى الله عليه وسلم – وبيانه هو أروع ما يكون البيان فلقد آتاه الله جوامع الكلم وأعلى مستويات البلاغة.

ومن أمثلة السنة الموحى بها عن طريق الإلهام والإلقاء في الروع ما رواه الحاكم في المستدرك من حديث بن مسعود رضي الله عنه أنه – صلى الله عليه وسلم – قال: "ليس من عمل يقرب من الجنة إلا قد أمرتكم به، ولا عمل يقرب إلى النار إلا قد نهيتكم عنه، لا يستبطئن أحد منكم رزقه، إن جبريل عليه السلام ألقى في روعي: أن أحد منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، فاتقوا الله أيها الناس وأجملوا في الطلب، فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله فإن الله لا يُنالُ فضله بمعصيته"([1]).

ومن أمثلة السنة الموحى بها وحياً جلياً ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث الرجل الذي جاء فقال: (يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم عليه جبة صوف متضمخ بطيب، فنظر إليه - صلى الله عليه وسلم – ثم سكت، فجاءه الوحي ثم سري عنه، فقال أين الذي سألني عن العمرة آنفاً فالتمس الرجل فجيء به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها، ثم اصنع في عمرتك ما تصنع في حجك"([2]).

المثال الثاني والعشرون: قال محمد السعيد[3] لقد روى البخاري ومسلم أن النبي – صلى الله عليه وسلم – سُحِرَ، وفي ذلك تعارض

[1] - رواه الحاكم في المستدرك ٤/٢، كما أخرجه من حديث جابر وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي.
[2] - الحديث بتمام نصه رواه مسلم في كتاب الحج – وكذا البخاري.
[3] - إشكاليات الخطاب الديني – محمد السعيد – ص٣٩١.

مع القرآن في قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾([1])

والجواب على ذلك أن غاية ما تدل عليه الرواية أن ذلك السحر إنما أثر في بدنه دون روحه وعقله، وما يصيب الأبدان من أمراض وإصابات واعتداءات ونحوه لا عصمة للأنبياء منها، فهي ابتلاءٌ من الله يمس البدن وقد يضيق له الصدر، ومن المعروف أنه – صلى الله عليه وسلم – جرح في غزوة أحد، وكان يمرض أحياناً بالحمى، فأما عقله – صلى الله عليه وسلم – فما دنا إلى رحابه طائف من الإنس ولا من الجن، ولو وزن بعقول الناس جميعاً لرجح عليها، ومن أواخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾([2]) فتحققت له – صلى الله عليه وسلم – العصمة التامة من كل ما يعوق رسالته، أي أن الله قال له لا تخشى أحداً فالله حافظك حتى يظهر الله دينه على الدين كله ويتم الله نوره ولو كره الكافرون.

---

[1] - المائدة: ٦٧.
[2] - المائدة: ٦٧.

أما القول بأن الرواية جاءت عن هشام عن أبيه وأن من علماء الجرح من كان لا يرتضيه ففي ذلك قال بن القطان: "تغير هشام قبل موته ولا شك أن تعديل الجماعة له ومنهم الشيخان خاص بما رواه قبل تغيره".

وقال رشيد رضا "فالتحقيق أنه خاص بمسألة الزوجية كما جاء التصريح به في الرواية الثانية للشيخين (كان صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن)، وتعبير أمنا عائشة رضي الله عنها والذي تقول فيه (سحر النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى إنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله) محمول على ما جاء في رواية (حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن)، فهي عبرت عن ذات المعنى بعبارة ألطف وبأدب جم.

المثال الثالث والعشرون: يسوق محمد السعيد رواية البخاري (حدثنا عمر: حدثنا أبي: حدثنا الأعمش، عن إبراهيم قال :قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء، فطلبهم فوجدهم، فقال: أيكم يقرأ على قراءة عبد الله؟ قال: كلنا، قال: فأيكم أحفظ؟ فأشاروا إلى علقمة، قال: كيف سمعته يقرأ: {والليل إذا يغشى}. قال علقمة: {والذكر والأنثى}. قال: أشهد أني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأ: {وما خلق الذكر والأنثى}. والله لا أتابعهم.

باب: قوله: {فأما من أعطى واتقى}).

ويستدل محمد السعيد بهذه الرواية على أن الصحابة –رضي الله عنهم– باختلافهم هذا يطعنون في صحة القرآن، ويقول...(ثم أي سنة هذه التي يريد البخاري أن ينقلها لأتباعه من فرقة أهل السنة لتدوينه مثل هذه الروايات في صحيحه، إننا إذا صدقنا البخاري فيما روى كذبنا القرآن وإذا صدقنا القرآن

كذبنا البخاري بل وكذلك الصحابة الذين نقل عنهم هذه الرواية، وإذا كذبنا البخاري في رواية واحدة خاصة وأنها تمس حجية كتاب الله تعالى، فهل من حقنا أيضاً التوقف عند جميع مروياته......؟)([1]).

هكذا في مجازفة صارخة وجرأة بالغة يسب محمد السعيد أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – والإمام البخاري ويتهمهم بالكذب وإثارة الشبهات حول كتاب الله، وكل جريمة البخاري والصحابة رضوان الله عليهم أن واحداً منهم لم يسمع كلمة من تلاوة النبي – صلى الله عليه وسلم – المتواترة التي أثبتها كتبة الوحي في سطورهم والصحابة في صدورهم.

إنه التشويش والتشغيب والتشويه والاصطياد في ماءٍ صفو أصبح عكرا بفعل السعيد.

المثال الرابع والعشرون: ويسوق محمد السعيد رواية البخاري (حدثنا محمد بن رافع. حدثنا عبدالرزاق. أخبرنا معمر عن همام بن منبه. قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لولا بنو إسرائيل، لم يخبث الطعام. ولم يخنز اللحم. ولولا حواء، لم تخن أنثى زوجها الدهر").

ويعلق على ذلك بقوله (إن من المعلوم أن الفطر المتسبب في العفن موجود في الكون من قبل أن يولد بنو إسرائيل ويتساءل كيف تتحمل الجينات الوراثية وزر الخطيئة)[2].

وجوابه أن محمد السعيد لو كان قد درس علم الدلالة لعلم أن قوله – صلى الله عليه وسلم – لولا بنو إسرائيل لم يخنز – أي لم يفسد – اللحم

[1] - لا إله إلا الله عقيدة وشريعة – محمد السعيد – ص ٢٩٨، ٢٩٩.
[2] - إشكاليات الخطاب الديني – محمد السعيد – ص٣٨٩، ٣٩٠.

المقصود به: إما اللحم الذي عندهم وهو لحم السلوى الذي اكتنزوه شحاً وبخلاً ففسد وإما المقصود به الاقتداء بهم في شحهم وبخلهم.

المثال الخامس والعشرون: أما قوله – صلى الله عليه وسلم – "ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر" فلا علاقة لذلك بالأكل من الشجرة في الجنة، والنص لا يفيد ذلك لا من قريب ولا من بعيد إذ الثابت في كل الآيات القرآنية مسئوليتهما معاً عن ذلك بعد أن وسوس الشيطان لهما معاً بالأكل من الشجرة، إلا أن محمد السعيد التقط هذا المعنى من فهم بعض الشراح للنص، واعتبر فهمهم جزءً من النص، فراح يصفق ويقول إن في البخاري إسرائيليات لأن الذي فهمه الشراح من النص من أن حواء هي التي أوحت لآدم بالأكل من الشجرة موجود في الإسرائيليات، وبما أن ذلك كذلك فإن البخاري بالتالي يكون قد احتوى على إسرائيليات؟! إنه الافتراء والسفسطة إلى حد التهريج.

والفهم الصحيح للنص "ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر" أنه حديث عن طبائع النساء التي ذكر منها النبي – صلى الله عليه وسلم – في حديث صحيح أنهن يكفرن العشير: أي أن الواحدة منهن قد تنسى فضل زوجها وجميل عطائه وحدبه ورعايته وقوامته تحت وطأة ما حباها الله به من عاطفة تغلب على العقل في أحيان كثيرة. ومن المعلوم أنه كما تقع الخيانة من الزوجة بمعنى عدم الوفاء لزوجها فإنها قد تقع كذلك من الرجل بإنقاصه حقها، أو عدم الوفاء لها، فالخيانة في اللغة معناها النقص.

المثال السادس والعشرون: روى البخاري في **كتاب الصلاة** – باب: كيف فرضت الصلوات في الإسراء – الحديث رقم ٣٤٢، قال: حدثنا يحيى بن

بكير قال: حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب، ممتلىء حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا، قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد، على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، حتى عرج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، (فقال له خازنها مثل ما قال الأول، ففتح). قال أنس: فذكر: أنه وجد في السماوات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، صلوات الله عليهم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر: أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة، قال أنس: فلما مر جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم بإدريس، قال: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح. (فقلت: من هذا؟ قال: هذا إدريس، ثم مررت بموسى، فقال: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى، فقال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى، ثم

مررت بإبراهيم، فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم صلى الله عليه وسلم).

قال ابن شهاب فأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري: كانا يقولان: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام). قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك، حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعني فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق، فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته، فقال: هي خمس، وهي خمسون، لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربك، فقلت: استحييت من ربي، ثم انطلق بي، حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك.(وأخرجه مسلم في الإيمان، باب: الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: ١٦٣.

وجاء في رواية أخرى للبخاري:

-حدثنا عبد العزيز بن عبد الله: حدثني سليمان، عن شريك بن عبد الله أنه قال: سمعت أنس بن مالك يقول:

"ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة: إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام،................ ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبَّار

ربُّ العزَّة، فتدلَّى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى" (رواه البخاري - ٧٠٧٩).

وبسبب حديث الإسراء والمعراج في روايتيه حمل محمد السعيد على الإمام البخاري وأئمة أهل السنة حملة شعواء بلغ بها في التطاول على البخاري أقصى مدى حتى قال ما نصه: "فأي مسلم يقبل أن يكون هذا النص من السنة المبينة والمكملة لأحكام القرآن؟!، وأي صحيح هذا الذي ورثته الأمة وهو يحتوى على مثل هذه الأباطيل؟! وأي علم حديث هذا الذي يعتبر بقواعده وشروطه المذهبية أن صحيح البخاري هو أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل .... انظر كيف يحاولون تأويل الباطل بباطل مثله ولا ينزهون الله تعالى عن مثل هذه الإسرائيليات التي يقدسونها لوجودها في تراثهم المذهبي!! ثم ما الدليل على أن الله تعالى يمكن أن يظهر أيضاً في رؤيا للرسول بصورة مجسمة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ الشورى: ٥١

إن من الفهم السقيم الذي فهمه محمد السعيد قول الراوي: "ودنا الجبار رب العزة" حيث فهم من ذلك أن دنو الله وحاشا لله جاء في صورة مجسمة مع علمه بأن الصحابة – رضوان الله عليهم – وسلفنا الصالح أبعد ما يكونون عن ذلك لقوله تعالى عن نفسه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى: ١١.

حتى قالوا: "كل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك"، فالله يدنو والله ينزل والله تجلى إلى الجبل، وكل ذلك على مراد الله وعلى خلاف كل ما يخطر على البال.

أما قول محمد السعيد أن في الرواية "قبل أن يوحى إليه"، ولعل الراوي أراد أن يقول بعد أن أوحي إليه فقال قبل أن يوحى إليه، فهي غفلة من محمد السعيد، إذ المعنى الواضح البين من الرواية "قبل أن يوحى إلأيه" أي أسري به قبل مجيء الوحي إليه في ليلة الإسراء.

المبحث الثالث

الأرجوفة الثالثة

يقول أ/محمد السعيد بأن كل تفرق وتشرذم مرده إلى السنة، أما القرآن فهو يؤكد على توحيد الأمة، ويحذر من انقسامها، وهو ادعاء رخيص، فأهل السنة وإن كان لكل إمام من الأئمة مذهبه وقواعده في الأخذ بالحديث أوتصحيحه فغايتهم واحدة لحمتها وسداها الوصول إلى الحق: "إذا صح الحديث فهو مذهبي"، وثناء بعضهم على بعض أمر معروف، والأعم الأغلب اجتماعهم على القضايا الكبرى في الشريعة "مذهب الجمهور"، والاختلاف الآن في قضايا نادرة وفرعية وفيما يتعلق بإنزال النص على الواقع، وهو اختلاف يثري ولا يزري، وفيه سعة لا ضيق.

والدراسة الفقهية المذهبية تعني البحث عن الوسطية، ولعل هذه الدراسة هي التي أعطت الأزهر بمصر ثقله في كل الدول الإسلامية.

والتمذهب موجود في كل دول العالم الإسلامي، بل في مصر ذاتها، فالعاصمة فيها خليط من المذاهب الفقهية التي يتم التعبد بها مالكي، وشافعي، وحنبلي، وحنفي، وفي الشرقية والدقهلية على سبيل المثال يوجد المذهب الشافعي، وفي الصعيد يوجد المذهب المالكي، وفي الإسكندرية يوجد المذهب الحنبلي والمالكي، والتخصص عموماً هو سمة الحياة المعاصرة، وتبقى المقارنات والمناظرات في رسائل الماجستير والدكتوراة وصولاً إلى الراجح من أقوال الفقهاء، وإحياءً

لسنة الاجتهاد، ورحم الله الإمام الشافعي حيث يقول "ما ناظرت أحداً إلا وتمنيت أن يظهر الله الحق لا أبالي على لسانه أم على لساني".

إن الدعوة إلى إهدار التراث الفقهي عامة، وتراث الأئمة الأربعة خاصة هو كارثة بكل المقاييس، لاسيما وقد تربى العلماء في الأزهر جميعهم على هذه التخصصات، إنه عبث ليس بعده عبث.

ولا علاقة للتعبد على أي من هذه المذاهب بالتشرذم والتفرق كما يدعي بن مشتهري، لأن التشرذم والتفرق له أسبابه التي من غير المعقول أن يكون يجهلها كالسياسات الاستعمارية والرجال الذين هم كأذناب البقر، أما أهداف الأمة وغاياتها الكبرى وقواعد دينها الكلية فلا خلاف عليها.

المبحث الرابع

الأرجوفة الرابعة

أما قول أ/محمد السعيد بأن السنة لا يراد بها إلا سنن القرآن فهو قول في ذات السياق سياق إنكار وإهدار السنة، ولم يقل به أحد من الأولين والآخرين، إنما هي سفسطة وفذلكة.

فما سنه النبي – صلى الله عليه وسلم – أي ما شرعه..

أما لفظ السنن في القرآن الكريم فقد ورد عدة مرات، ورد بصيغة المفرد "سنَّة"، وورد بصيغة الجمع "سنن" على النحو الآتي:

١- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٣٧

٢- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الأنفال: ٣٨

٣- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجر: ١١ - ١٣

٤- قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا

لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن

رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ الإسراء: ٧٦ - ٧٧

٥- قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ

ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ

ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ

قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ الكهف: ٥٤ - ٥٥

٦- قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ

خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٨

٧- قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ

فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾

مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى

ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٦٠-٦٢.

٨- و قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ

مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ

وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ

ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ فاطر: ٤٢-٤٣.

٩- قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا

بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ

خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ غافر: ٨٤ – ٨٥.

١٠- قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا

وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ

تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ الفتح: ٢٢ – ٢٣.

والمتأمل في هذه الآيات يتضح له أن كلمة سنّة أو سنن الواردة في الكتاب العزيز يراد بها تلك القواعد المطردة والقوانين الثابتة التي تحكم حركة الكون والحياة، فعلينا أن نسير في الأرض وننظر في هذه السنن بغرض أخذ العبرة والموعظة، فثمة مقدمات إن حصلت ستؤدي إلى نتائج لا مناص منها، فمثلاً: من نصر الله نصره، وترف أمراء أمة وفسقهم فيها

ينتج عنه تدميرها تدميراً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦ ﴾ الإسراء: ١٦.

وهناك سنَّة تداول الأيام قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ...وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ... ﴾ آل عمران: ١٤٠ ، ومن تلك السنن أيضاً: سنَّة التدافع البشري، وهي سنَّة ثابتة مطـــــردة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ... وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١ ﴾ البقرة: ٢٥١.

أما الطرفة التي اخترعها د/محمد السعيد طرفة القول بأن أوامر القرآن هي سنن علينا أن نفعِّلها فهو قول سفسطائي يخلط بين الأوامر التي نأتي منها ما استطعنا، وقد نخطئ أو نقصِّر فنبادر إلى التوبة والإصلاح، يخلط بينها وبين السنن التي جاءت في القرآن والتي هي على نحو ما رأينا قوانين مطردة ثابتة لا تتغير تحكم سير الحياة، أو بالأحرى قل أن محمد السعيد يريد أن يبدل سنة الله المطردة بقلب الأوامر والنواهي إلى سنن إلهية ثابتة لا تتغير تحكم سير الحياة، وهذا لم يقل به أحد من الأولين ولا الآخرين، إنه اختراع فاسد لا قيمة له ولا معنى، مع التسليم بالطبع بضرورة الالتزام والتطبيق لأوامر القرآن ونواهيه.

ولعل القارئ الآن يضرب كفاً بكف ويقول أمعقول قال ذلك د/محمد السعيد؟ أين عقله؟!، فأبادر إلى القول أي والله فهذا كلامه أنقله إليك من كتاباته.

قال إن آيات القرآن كلها سنن : باب الإيمان، وأن في ذلك (٣٣ سنَّة) منها قوله: كسنَّة وجوب تشرب قلوب العلماء بآيات القرآن، وسنَّة تكريم الله لأوليائه، وسنَّة الإيمان باليوم الآخر، وغير ذلك من هدايات القرآن التي أطلق عليها سنن، باب التوحيد الخالص (٤٥ سنَّة) منها سنَّة تقوى الله، وسنَّة محاسبة النفس، وغير ذلك من أوامر القرآن العظيم، باب إقامة الدين (٤٦ سنَّة) سنة البر، وسنَّة الكرم وغيرها من الفضائل، باب اليقين (٢٩ سُنَّة) منها سنَّة استشفاء النفس بهدي القرآن، باب الفهم الواعي (٤١ سنَّة) منها سنَّة الفهم الواعي للتقوى والرحمة والموروث الديني وطبيعة الخبيث والطيب ونحوه، باب الحذر (٤٤ سنة)، الحذر من المنافقين، والحذر من اتباع الشياطين، وغير ذلك مما ينبغي الحذر منه. باب الدعاء والصبر (٢٣ سُنة) منها سنَّة الصفح والدعوة للسلام وغير ذلك، باب التمسك والاعتصام بصراط الله المستقيم (٤٧ سنَّة) كعدالة توزيع المال ونحوه، وينتهي د/محمد السعيد إلى القول بأنه قد بلغ عدد الآيات التي استخلص منها سننه ١٧٩٠ آية قرآنية، وباقي الآيات سنن أيضاً، القرآن كله سنن.

فهو أجهد نفسه أيما إجهاد، وكان بحسبه أن يقول لنا ارجعوا إلى القرآن وكنا نقول سمعاً وطاعة وعلى العين والرأس كتاب الله، بدلاً من أن يتعب نفسه وينقل آيات القرآن في كتاب كامل ويطلق عليها سنن، فقد اعتبر أن الآيات التي لم ينقلها – باقي الآيات – ٧١% من القرآن هي أيضاً سنن. – ألم أقل لكم أنها طرفة من طرفات د/محمد السعيد –.

ويمضي بنا د/محمد السعيد في طرافته أو إن شئت فقل خرافته فيقول أن أقوال النبي – صلى الله عليه وسلم – مجرد مرويات بشرية، واجتهادات

ظنية الثبوت فلا يجوز تسميتها سنن، وبناءً على ذلك نراه لا يستدل ولو بحديث واحد لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويفسر آي الذكر الحكيم بعقله وهواه دون رجوع لأي من كتب التفاسير حتى لا يقع في المحظور عنده "أقوال المفسرين" لأن تراثنا لا يروق له، وعلينا أن نلقي به في عرض البحر، هكذا يريد لنا د/محمد السعيد، وينصح بالرجوع إلى المعاجم لفهم القرآن.

المبحث الخامس

الأرجوفة الخامسة

الخلط بين الفتيا والحديث:

إمعاناً في التهريج والغوغائية يخلط أ/محمد السعيد بين الفتيا والحديث. ومن المعروف أن الحديث هو قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذي صحت نسبته إليه ولا خلاف قديماً ولا حديثاً على ضرورة الأخذ به، أما الفتيا التي تتعلق بفهم الحديث وإنزاله على الواقع فهي تتغير بحسب الزمان والمكان والأحوال، ولا مشاحة في أن تختلف الفتيا حتى في الزمن الواحد والظرف الواحد والبلد الواحد طالما لدينا قواعد للترجيح ووزن الدليل عند التعارض.

المبحث السادس

الأرجوفة السادسة

أما دعوى ردم تاريخنا بزعم أنه كتب برؤى مذهبية[1] فعجب فوق العجب، فالأمة التي بغير ماضٍ هي أمة بغير مستقبل، والتاريخ هو مستودع العبرة ووقود التصحيح، ولسنا ندري أي مذهبية يتحدث عنها أ/محمد السعيد، ولو أنصف لقال إنها المذهبية المتعصبة المستعصية على العلاج، وهي مذهبية أقلية ضئيلة .. مذهبية الشيعة الذين يقولون بعقيدة غيبة وعودة المهدي، ولا يأخذون بالحديث إلا إذا جاء عن أهل البيت، ويسبون الصحابة، ويلعنون الصديق وعمر، ويقولون بأن المصحف نزعت منه سورة أسمها سورة الولاية – أي ولاية علي رضي الله عنه – وأن جبريل نزل بعد النبي بألواح على فاطمة، وكلها جنايات وخرافات يصير أمامها الحليم حيراناً، ومع ذلك علماؤنا لم يخرجوهم من الملة، ومنهم من رأي أن من مذاهبهم مما يصح التعبد به.

إلا أن أ/محمد السعيد يرى أننا نحن دعاة التشرذم والتفرق، وأن الشيعة خير من على الساحة، وهم يقاتلون بالسلاح، أما أهل السنة والجماعة فهم يقاتلون بالقلم والكلام.

إنها مغالطة مكشوفة وفرية كبرى، فهل نسي أ/محمد السعيد جهادنا بطول التاريخ وعرضه، أترانا في حاجة بأن نذكره بالقادسية ويعين جالوت وحطين وبحروبنا ضد الصليبية، ودماء شهدائنا في العصر الحاضر في العاشر من رمضان وانتصاراتهم الباهرة وتحطيمهم أسطورة الجيش الذي

---

[1] - لا إله إلا الله عقيدة وشريعة – محمد السعيد – ص٥.

لا يقهر في ملحمة فريدة من ملاحم التاريخ، يا ليته رأى كما رأينا تنافسهم وتسابقهم على الموت في سبيل الله أولاً، يا ليته سمع عن رجل الله المشير أبو اسماعيل ورفاقه الشاذلي وأبو غزالة وبدوي والجمصي وعاطف السادات، وصائد الدبابات عبد العاطي وغيرهم من الأتقياء الأخفياء، ومن قبلهم شيخ الإسلام بن تيمية المقاتل الشرس، والفقيه الورع، والفقيه المجاهد عبد الله بن المبارك – الذي كان يحج عاماً ويجاهد عاماً –، وملك الرمي والفقه الإمام الشافعي، وكذلك البخاري، وهل نسي فاتح القسطنطينية وصلاح الدين، وقطز، ومحمود نور الدين، ومحمد بن القاسم، وغيرهم وغيرهم.

فأين الشيعة من هذا الجهاد النبيل، أين قتالهم في سبيل نصرة الحق، إننا لا نذكر لهم في هذا المقام لا قديماً ولا حديثاً إلا الحرب المحدودة التي خاضها حزب الله ضد إسرائيل في لبنان، ومع تقديرنا لما وقع من بطولات وحسن تخطيط ومنع للعدو من التوغل في كامل لبنان اكتفاءً بمزارع شبعا التي مازالت تحت يد العدو الإسرائيلي، مع تقديرنا لذلك فإنه لا يعدوا كونه ذرة في مجرة من مجرات جهادنا، ولا ينكر ذلك إلا جاحد أو منافق.

المبحث السابع

الأرجوفة السابعة

أما اشتباكه مع علماء الفضائيات، وأنهم لا يقدمون العقيدة الراسخة والفهم السليم للشريعة. ومنهم من يقول بالتكفير واستحلال الأموال وقتل المدنيين. فهو أولاً خارج سياق البحث، وثانياً لا أعتقد أن أحداً من علماء السنة الموثوق بعلمهم قال بتكفير الشخص المعين والاستحلال وقتل المدنيين. لكنهم "يقولون أن حكم منكر الاحتجاج بالسنة هوالكفر والخروج من دائرة الإسلام"([1])، قال بن حزم رحمه الله: "لو أن امرءاً قال: (لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن) لكان كافراً بإجماع الأمة، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل، وأخرى عند الفجر"أ.هـ.([2])

وقال الإمام الشاطبي - رحمه الله -: "إن الاقتصار على الكتاب رأي قوم لا خلاق لهم خارجين عن السنة، إذ عولوا على ما بينت من أن الكتاب فيه بيان كل شيء فأطرحوا أحكام السنة، فأداهم ذلك إلى الانخلاع من الجماعة وتأويل القرآن على غير ما أنزل الله"([3]) أ.هـ.

وقال الإمام السيوطي - رحمه الله - : "من أنكر كون حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - قولاً كان أو فعلاً بشرطه المعروف في الأصول حجة، كفر وخرج من دائرة الإسلام"([4]).أ.هـ

---

[1] - انظر: مفتاح الجنة للسيوطي.

[2] - أ.هـ [الأحكام ٢/٢٠٨].

[3] - [الموافقات] ١٧/٣.

[4] - [مفاتح الجنة]

ونؤكد أننا وأئمتنا لا نقصد تكفير المعين بشخصه، إذ من المعلوم أن تكفير المعين يقتضي المحاكمة الشرعية والتعزير والاستتابة، ولابد أن يستجمع كافة شرائطه الشرعية.

المبحث الثامن

الأرجوفة الثامنة

أما الادعاء بأن والده رحمه الله وافقه على أفكاره فهو ادعاءٌ يناهض الحقيقة، فوالده – رحمه الله – علم من أعلام السنة، وعليها ربى أولاده وتلامذته، وفيما تحقق لدينا أنه كان كثير النصح لابنه محمد السعيد بضرورة الإقلاع عن هذه الأفكار الضالة المضلة، إلا أن السعيد مضى سادراً في غيه وازداد مع مرور الأيام تمادياً حتى كتب في جريدة الدستور – العدد ١٥٦ – الإصدار الثاني – ١٢مارس ٢٠٠٨. يقول (الطلاق ليس قراراً فردياً يتخذه الزوجان أو أحدهما ولا يقع حتى لو نطق به الزوج مئات المرات)، وهو بذلك يكون قد قفز قفزة هائلة وتخطى إنكار السنة إلى معارضة القرآن في نصوصه قطعية الثبوت قطعية الدلالة، وهو الهدف الأسمى للمستشرقين.

إن السعيد قد دخل إلى منطقة شائكة جداً، وألقى بنفسه إلى التهلكة، فهذه المنطقة بالذات منطقة الأعراض منطقة شديدة الحساسية، واللعب فيها أمر في غاية الخطر يستنفر ضده كل قوى المجتمع الغيورة على دينها، ويضعه على حافة الهاوية، وما أحسب أن دولةً دينها الرسمي الإسلام تستطيع أن تتحمل مثل هذا العدوان على مقدساتها وأعراض رعاياها.

ونعود ونقرر أن والده رحمه الله برئ من كل هذا، ومن شاء فليرجع إلى دروس الشيخ العلامة عبد اللطيف مشتهري – رحمه الله – ومنها دروسه في المسجد الكبير بالقاهرة، ومنها ما كان بتاريخ ١٩٧٨/٧/٢٦ حيث قال

"إن الشريعة تحتاج إلى الحديث حاجتها إلى القرآن"، والحلقة ٢٥من دروس الآخرة بمدينة العياط – الإثنين – ١٩٧٨/٧/٢٤ حيث رد في افتتاحية الدرس على الذين يستغنون عن الأحاديث ويكتفون بالقرآن.

ومن أقوال د/ عبد اللطيف مشتهري المنشورة تحت عنوان إنكار السنة قال ما نصه: [وهناك فتنة من نوع جديد ألا وهي أنك تفاجأ بمن يقول لك لا تقل لي قال رسول الله ولكن قل لي قال الله فإن الأحاديث لا ثقة لي فيها لأن كثيراً منها ليس من الدين، هذا علاجه أن تطلعه على حقيقة القرآن والسنة وأن القرآن هو القانون وأن المذكرة التفسيرية له هي السنة وأن الذين عملوا في حقل الحديث تحروا الدقة وكانوا في منتهى الحذر حتى أنهم قسموا الحديث إلى درجات في المتن والإسناد حتى قسموه إلى عشرات من أنواع الحديث، وهناك الكتب الستة وهي عماد الحديث وهي البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو داود – وهناك محدثون كثيرون ثقة – وإذا كان الذي يؤمن بآيات القرآن فقط ولا يؤمن بالحديث لأنه شاك فيه يصلي – فلم يصلي المغرب مثلاً ثلاث ركعات مع أنه لم يرد في القرآن ما يفيد عدد الركعات في كل فرض ولا شكل هذه الصلاة من ركوع وسجود – فهذه فتنة لأننا إن أهدرنا الحديث ضاع الدين وها أنت ذا تصلي بموجب الحديث لأن القرآن قال (أقيمو الصلاة) فقط، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (صلوا كما رأيتموني أصلي) فلابد أن نتقبل سنة الرسول القولية والفعلية والحالية – أي ما قاله وما فعله وما كان عليه حاله – فالسنة هي المصدر الثاني بعد كتاب الله وأي إنسان يهدرها أو يسقطها من حسابه فليس بمسلم ويعيش كافراً ويلقى الله كافراً وقد تنبأ الرسول – عليه الصلاة والسلام – بهذا فقال: (يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يأتيه الأمر من

أمري فيقول ما نجد هذا في كتاب الله، ألا اني أوتيت القرآن ومثله معه)، فمعنى كلمة ومثله هي السنة وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز لأمهات المؤمنين ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [1] فكلمة الحكمة هي السنة فها هو الله سبحانه وتعالى يحث على ذكر السنة ونشرها، والمنكر للسنة منكر للقرآن لأن السنة هي التطبيق العملي والممارسة العملية. وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (خذوا عني مناسككم)، فإذا ما أهدرنا السنة فلن تكون لنا صلاة ولا أذان ولا ركوع ولا سجود ولا قراءة فاتحة ولا تشهد إلى آخر ذلك من أركان الصلاة وسننها. كذلك فلن نعرف الزكاة ولا النصاب ولا أنواع الزكاة. كذلك لن نعلم مبطلات الصيام ولا المباحات فيه. ولن نعلم في الحج كم من الأشواط نكوف حول الكعبة، ولا كم مرة نسعى بين الصفا والمروة، ولا ما هي حدود عرفة ومنى ومزدلفة ولا حتى عدد الجمار. كل المطلوب في الحديث أن يكون صحيحاً صريحاً فإذا تم ذلك وجب قبوله، ونحن نؤمن بأن هناك أحاديث مدسوسة ولكن المحققين كشفوها]([2]).

وهذه التسجيلات وليمن الطالع متداولة، وتحتفظ بها الأسرة الكريمة التي تسير كلها على درب الوالد إلا السعيد، رحم الله الشيخ عبد اللطيف مشتهري رحمة واسعة.

---

[1] - الأحزاب: ٣٤

[2] - هذه دعوتنا – الشيخ عبد اللطيف مشتهري – الرئيس العام وإمام أهل السنة للجمعيات الشرعية والوكيل العام بللدعوة الإسلامية بالأزهر – الناشر دار الاعتصام.

أما ادعاء السعيد بأن الأستاذ الدكتور/عبد الصبور شاهين قد وافقه على فكرته فهو أمر نستبعده ونرى أن الشيخ زُجَّ به زجّاً وأقحم إقحاماً في أمرٍ لا ناقة له فيه ولا جمل، ولإن كان من الصحيح أنه كتب مقدمة كتاب السعيد، فإن هذه المقدمة في حقيقتها نقد مهذب ليس فيه مظاهرة ولا تأييد، فهو في وضوح تام يقرر أن كتاب السعيد فيه جهد لم يسبق إليه، لكنه في سياق محدد وهو تفعيل النص القرآني، أما سنة النبي - صلى الله عيه وسلم - من حيث كونها تشريعاً – كما يقول الشيخ/ عبد الصبور شاهين – فإن د/محمد السعيد لم يتعرض لها لأنها خاج دائرة بحثه واختصاصه.

والذي يبدو لنا أن فضيلة الشيخ لم يحط إحاطة تامة بمجمل أفكار السعيد، فمن الطبيعي أن من يكتب مقدمة يتصفح الكتاب تصفحاً، أو ربما يكتفي بنبذة عنه من الكاتب، ولو علم الشيخ بكتابات السعيد المفصلة الصريحة والتي صادرها الأزهر لتغير وجه الرأي عنده.

أما الادعاء بأن الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – قد سبقه إلى ذات الفكرة فهو افتراء عليه، صحيح أن للشيخ الغزالي كتاب بعنوان (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) عارضه فيه بعض العلماء من أهل الاختصاص في علم الحديث لا من حيث مضمونه – نقد بعض النصوص لعلل في متونها –، ولكن فيما يبدو لي لأن عبارات الشيخ الغزالي معروف عنها الحدة والقسوة، وهو أشبه ما يكون بجرّاح يجري عملياته بمشرطه حاد الشفرة دون تخدير أو تمهيد، وسنعرض لأهم موضوعاته باختصار وتصرُّف، وسنرى أنها في الجملة مقبولة وأنها في سياق الغيرة الشديدة

علـى الـسنّة والحـرص علـى تنقيتهـا لا إنكارهـا، فهـو يأخـذ بـالمتواتر منهـا وبأحاديث الآحاد بشرائطها وفي مجالها – مجال التشريع -.

ولسوف تراى الشيخ الغزالي قد قال في عبارة صريحة واضحة "ولا أعرف أحداً من علماء الإسلام هون من مكانة السنة النبوية، ولا أجاز أن يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كلمة ويمضي هو على خلافها، بل ذلك طريق الكفر"([1]).

كل ما في الأمر أن الشيخ الجليل الغيور على السنة النبوية مارس حقه كفقيه في نقد بعض المتون، وفعلت ذلك أنا أيضاً([2])، وفعله قبلنا سادتنا من علماء الفقه والأصول، ومارسه أيضاً علماء الحديث كالبخاري والترمذي وابن قطّان وغيرهم، ومن أمثلة ما ساقه الإمام الغزالي في هذا الصدد مما رأى أنه يصح سنداً ويضعف متناً لعلة كامنة فيه:

١- حديث الغرانيق المكذوب: فمع أن الحافظ بن حجر قوّاه مما جعل محمد بن عبد الوهاب يورده في السيرة النبوية، فإن هذا الحديث من وضع الزنادقة.
٢- حديث لحم البقر داء: مع أن الشيخ الألباني صححه إلا أن الشيخ الغزالي رأى أنه لا يصح متناً لأن الله تعالى في موضعين من كتابه أباح لحم البقر وامتن به عى الناس فكيف يكون داء؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ الأنعام: ١٤٢

[1] - انظر "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" للإمام الغزالي – دار الشروق- ٢٠٠٣م.
[2] - انظر كتاب عقدة انكاح – شافع توفيق محمود – دار الفرقان – ٢٠٠٠م.

ثـم يفـصل مـا أبـاح أكلـه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ... ﴾ الأنعام: ١٤٣ ، ثم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ... ﴾ الأنعام: ١٤٤

٣- حـديث لا يقتـل مـسلم بكـافر: مـع صـحة سـنده إلا أن المـتن معلـول لمخالفتـه للـنص القرآنـي فـي قولـه تعـالى: ﴿ أَنَّ ٱلنَّفْسَ .. ﴾ المائدة: ٤٥، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ ...فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ... ﴾ المائدة: ٤٨ ، وقوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ... ﴾ المائدة: ٥٠.

ولذلك فإن الإمام أبو حنيفة يرى أن دائرة تطبيق هذا الحديث أن من قاتلنا من الكفار قاتلناه، فإن قتل فإلى حيث ألقت – أي النار ألقت ما فيها وتخلّت – أما من له ذمة وعهد فمن قتله من المسلمين يقتص منه، ويعلق على ذلك الشيخ الغزالي بقوله:"وعند التأمل نرى الفقه الحنفي أدنى إلى العدالة وإلى مواثيق حقوق الإنسان، وإلى احترام النفس البشرية دون نظر إلى البياض والسواد، أو الحرية والعبودية أو الكفر والإيمان، إن من يشاركوننا في المجتمع لهم ما لنا وعليهم ما علينا، فكيف يهدر دم قتيلهم.

إن القصاص شريعة الله، وهو ظاهر القرآن الكريم، والأحناف يقدمون ظاهر القرآن على حديث الآحاد، والمالكيون يقدمون عمل أهل

المدينة على حديث الآحاد باعتبار أن عمل أهل المدينة أدل على السنة النبوية من حديث راو واحد.

وقد أمضى مالك القصاص للفرع من الأصل إذا كان الأب القاتل قد أقدم على الجريمة عامداً مصراً مغتالاً، ولم يطبق الحديث الوارد بمنع هذا القصاص مع صحة سنده، وللقاعدة آنفاً التي قعَّدها.

٤- حديث دية المرأة على النصف من دية الرجل: هو أيضاً معلول بمخالفته للنص القرآني، إن الرجل يقتل في المرأة كما تقتل المرأة في الرجل فدمهما سواء باتفاق، فما الذي يجعل دية دون دية؟

كما أننا في هذا الشأن نستأنس بمسلك عثمان بن عفان – رضي الله عنه – الذي أكمل دية الذمي وكانت على النصف من دية المسلم، حيث رأى عثمان طمأنة أهل الذمة على مكانتهم بتعزيز دياتهم.

على أن الفقه الحنفي يسوي في الدماء والديات بين الجميع.

٥- في مقام تفسير قوله تعالى عن معراج النبي - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ النجم: ٤ - ٩.

فلقد جاءت رواية بطريق الآحاد تفيد أن الذي دنا فتدلى هو الله، وهذه الرواية تخالف المتواتر المقطوع به في الكتاب والسنة من أن

المقصود هو جبريل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤.

فلا نملك إلا أن ندع هذه الرواية ونأخذ بما هو أوثق منها، كذلك فعل الإمام مسلم مع إمامه البخاري وذكر أن الخطأ جاء من الراوي حيث وهِل عن منطوق النص فزاد ونقص وقدم وأخر.

إن مسلماً مضى على منهج المحدثين فناقش عمل شريك - الراوي عن أنس – ثم رفض المتن، ومن قبل سأل مسروق عائشة – رضي الله عنها – هل رأى محمد ربه؟، قالت:"لقد قفَّ شعر رأسي مما قلت، أين أنت من ثلاث؟ من حدثكهن فقد كذب – أي وهل وأخطأ ونسي –!!.

من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ الأنعام: ١٠٣.

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ... ﴾ الشورى: ٥١.

ومن حدثك أنه يعلم مافي غد فقد كذب!، ثم قرأت: ﴿... وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ لقمان: ٣٤.

ومن حدثك أن محمداً كتم أمراً فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ...﴾ المائدة: ٦٧ ، ولكنه – صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته مرتين.

٦- ومن الأحاديث أحاديث لايمكن فهمها إلا بوضعها في سياقها من مجمل النصوص الشرعية، من ذلك مثلاً:الأحاديث الواردة في القضاء والقدر إذ الثابت أن العلم الإلهي مسطور في كتاب مطابق شامل محيط، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ الحج: ٧٠.

٧- وهذا الكتاب يضم عالمي الغيب والشهادة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿... عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ سبأ: ٣.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ...وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ الأنعام: ٥٩.

و قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ الملك: ١٣ - ١٤.

و قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ الحديد: ٢٢.

و هذا العلم الإلهى القديم يشعر الإنسان بالراحة و السكينة و الطمأنينة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ التوبة: ٥١.

إن هذا العلم الأعلى يتناول ملكوتاً واسعاً نشغل نحن البشر حيزاً صغيراً منه، والأقدار حولنا تصنع الكثيرمما نفهم ومما لا نفهم، ومطلوب منا أن نصبر في البأساء والضرَّاء وأن نشكر في النعماء والسرَّاء، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ الملك: ٢ ، فهذه أقدار تجرى علينا لا يد لنا فيها و هي ابتلاء يكشفنا أما أنفسنا وأمام الآخرين أجزعنا أم صبرنا، و هذا النوع من

القضاء والقدر نقول فيه قدر الله وما شاء فعل؛ وننظر في الأحداث الماضية فقط بغرض أخذ العبرة والعظة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ...فَٱعْتَبِرُوا يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ الحشر: ٢ ، فتغمر أنفسنا السكينة ويملؤها الرضا مهما كان الخطب، وهذه الأقدار الخارجية الواقعة علينا ولا يد لنا فيها، نحن أمامها مجبورون فمن ذا الذي يتحكم في رزقه أو أجله، أو في لونه وطوله وعرضه!!، ومع ذلك فهناك نوع آخر من الأقدار المسطورة في كتاب الله الأزلي بمقتضى أنه تعالى عليم حكيم، وهي الأقدار التى تتعلق بإرادتنا وما يصدر عنا من أفعال وأقوال وإعلان وإسرار وإخفاء وهي التي نُسأل عنها ولا مجال فيها للإجبار لأن المسئولية إنما تكون لمن أعطي حرية الاختيار وكأن الكتاب الإلهي هنا بمثابة مرآة ينعكس عليها كل ما يصدر عنا، أو هي كاميرا تلتقط صوراً لنا، أو إن شئت قل كأننا كتاب مفتوح لا يخفى منه شئ من سطوره ولا حروفه على خالقنا - جل وعلا - إنه كتاب علم لا إجبار فلا يسوغ لأحد أن يعصي الله ثم يقول لو أراد الله لي الهداية لاهتديت، لا يسوغ ذلك وقد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ ... ﴾ الأنعام: ١٠٤ ، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ... ﴾ الكهف: ٢٩ ، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ الإنسان: ٣ ، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ البلد: ١٠.

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ الشمس: ٧ - ١٠.

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً فإن الأستاذ يقول مثلاً سينجح فلان ويرسب فلان، فإذا النتيجة تتحقق كما قال، وما ذاك إلا لأنه خبير بتلاميذه، ولله المثل الأعلى، فعلمه السابق الذي لا يتخلف ليس سببًا في نجاة ولا هلاك ولا طاعة ولا معصية، وفي إطار تلك القاعدة الكلية التي جاء بها القرآن في مسألة القضاء والقدر ينبغي أن نفهم كل حديث صح عن رسول الله من أحاديث القضاء والقدر من مثل قوله -صلى الله عليه وسلم-:" إن الله -عز وجل- خلق للجنة أهلاً وخلق للنار أهلاً" يجب أن نفهمها في ضوء قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ النجم: ٣٩ - ٤١.

٨- حديث: لا يُسأل الرجل فيما ضرب امرأته:، لإن صح سنداً فهو لا يصح متناً بمعارضته للقرآن حيث قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ... ﴾ النساء: ٤٠ ، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ... مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ النساء: ١٢٣ ، أما حديث مسلم في صحيحه:"لتؤدين الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة

الجلحاء من الشاة القرناء"، أفتكون الزوجة المضروبة أهون على الله من نعجة منطوحة ظلماً؟!.

٩- اعترض الشيخ الغزالي على حديث تميم الداري عندما جاء ليسلم، وقال تميم أنه غرقت به السفينة فرأى الدجال مشدود الوثاق بإحدى الجزر ببحر الشام أو بحر اليمن، ومحل اعتراض الشيخ الغزالي أن الحديث روته فاطمة بنت قيس، وسبق لها أن روت حديثاً في أن المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها ولا عدة، ورفضه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه – بقوله: لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لحديث امرأة لا ندري حفظت أم نسيت، إننا في عصرنا طَرقَ كل شبر في البر والبحر والتقطت صور لأعماق المحيطات عن طريق الأقمار الصناعية!، فأين تقع هذه الجزيرة؟.

١٠- قَالَ تَعَالَى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ...﴾ البقرة: ٢٢٣ ، و

قال تعالى قمعاً لغرائز السوء وتذكيراً بمصائر الهالكين: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦.

والحرث مكان البذر لا غير، لا يقول بغير ذلك أحد يعرف لغة الوحي، إلا أن رواية نافع يفهم منها أن الرجل يستطيع أن يتجاوز ذلك من زوجته، إنها كبوة جواد، ولكل جواد كبوة، ونافع – غفر الله لنا وله

– برأيه هذا أو بروايته يخالف دلالات القرآن وسنناً أخرى أثبتها الرواة، كما يخالف طبائع الأحياء، فمع أن القول عن نافع صاحب السلسلة الذهبية الأعلى كعباً في مقام الأسانيد، إلا أن روايته غير مقبولة لأن المتن يعارض القرآن ويعارض صحاح في السنة.. صحيح إن لكل جواد كبوة.

١١- ومن علل المتون أيضاً مخالفة الواقع التاريخي، فالأثر الذي يقول (الغارة بلا إنذار – أي على العدو –) مردود متناً، إذ الثابت تاريخياً حرص الخلفاء والأمراء وقادة الجند ألا يشتبكوا في حرب إلا بعد دعوة متأنية واضحة مفصلة على نحو ما أخرجه البيهقي وبن عساكر عن سعيد بن المسيب وأحمد في مسنده وأبو نعيم في حليته، فالروايات في الدعوة إلى الإسلام قبل القتال مستفيضة أيام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأيام الصحابة – رضي الله عنهم –، وغفلة نافع أيضاً عنها كبوة أخرى لجواده، فسيد الدعاة محمد – صلى الله عليه وسلم – نهى أن يؤخذ الناس على غرة من غير دعوة ولا بلاغ، والتحقيق التاريخي يفيد أن الدعوة كانت قائمة أول حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وآخرها، وأن الزعم بنسخها لا أصل له، وأن نافعاً غفر الله له جانبه التوفيق في فهمه، والثابت التاريخي أيضاً نعرف منه أن من خلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حرصه على حقن الدماء ورفضه للغارة بلا إنذار على النحو الذي توهمه بعض الرواة.

إن القتال إنما شرع دفاعاً عن الحقائق والحقوق وتأميناً لمسار الدعوة من الفتانين والمعوِّقين لا طلباً للغنيمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ... ﴾ النساء: ٩٤ ، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ... فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ ﴾ النساء: ٩٠.

١٢- ومن علل المتون أيضاً نسخ الحديث، فحديث أن الصلاة يقطعها مرور المرأة والحمار والكلب الأسود مع أن الشيخ المحدث الألباني صححه إلا أن الحديث معلول متناً ورفضه الشيخ الغزالي وسنده في ذلك رأي الشيخ العلامة/ أحمد شاكر – من كبار علماء الأمة – في تعليقاته على المحلّى لابن حزم في سياق رواية جاء فيها "...سمعت عمر بن عبد العزيز يحدث عن عياش ابن أبي ربيعة قال: بينما رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصلي يوماً بأصحابه إذ مر بين أيدينا حمار! فقال عياش: سبحان الله! فلما انصرف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من صلاته قال: أيكم سبح؟ قال عياش أنا يا رسول الله! سمعت أن الحمار يقطع الصلاة، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يقطع الصلاة شيء!... وقد قلت في شرحي على التحقيق لابن الجوزي بعد رواية هذا الحديث: هذا

إسناد صحيح، وشرح الشيخ أشياء تحتاج إلى بيان، ثم قال: وهو صريح في الدلالة على أن الأحاديث التي فيها حكم بقطع الصلاة – بالمرأة والحمار والكلب- قد نُسخت، فقد سمع عياش أن الحمار يقطع الصلاة، وعياش من السابقين الذين هاجروا الهجرتين، ثم حبس بمكة، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يدعو له في القنوت كما ثبت في الصحيحين، فعلم الحكم الأول ثم غاب عنه نسخه، فأعلمه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد أن الصلاة لا يقطعها شيء.. قال الشيخ شاكر – رحمه الله -: وهذا تحقيق دقيق واستدلال طريف لم أر من سبقني إليه"([1]).

١٣- قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ النجم: ٤٥ - ٤٦ ، و قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ القيامة: ٣٦ - ٣٩ ، و قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الإنسان: ٢ .

وبتجارب علمية عديدة ثبت أن تكوين الجنين وتحديد صفاته يساهم فيه الذكر والأنثي، وعن أبيه وعن أمه وأجداده يأخذ صفاته، حيث استبان للعلماء أن الخلية الأولى الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة – بويضة المرأة التي اخترقها كائن حي يوجد في

[1] - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث – للغزالي.

ماء الرجل "المنيّ" – عبارة عن كتاب ضخم يحوي جميع ما سوف يكون عليه الإنسان من صفات خِلقيه، وخُلقيّة، قرابة الخمسين ألف صفة وراثية في هذه الخلية، إنها الخريطة الوراثية العجيبة التي تمتد إلى أبعد من الأب والأم لتصل إلى الأجداد والجدات القريب منهم والبعيد.

إذن تحديد نوع المخلوق أذكر هو أم أنثى فمرده إلى ماء الرجل، وهو ما يطلق عليه في اللغة المنيّ، وفي التعبير القرآني قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ القيامة: ٣٧ – ٣٨.

أما عملية الخلق والتكوين عموماً – تحديد الصفات – فمردها إلى الأب والأم معاً، وحسب التعبير القرآني قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الإنسان: ٢.

ومن لطيف ما رأى علماء الأجنّة عن طريق الأجهزة الحديثة تلك الرحلة الشاقة المهلكة التي تسافر فيها الملايين من الكائنات المنوية – أربع مائة مليون في الدفقة الواحدة – تسافر عبر دهاليز الرحم ومغاراته وانحناءاته وممراته الضيقة إلى حيث الموقع الذي هبطت إليه تلك المدللة الفاتنة نطفة امرأة – بويضتها – وبعثت بريحها العطرية إلى تلك الملايين من المخلوقات المنوية الحية، فجذبتها وشدتها وجعلتها تهرع إليها وتلبي دعوتها وتطمع في وصالها مهما كانت التضحيات عبر طريق شاق وطويل حيث يضل

الطريق من يضل ويسقط من يسقط من شدة الإعياء، فإذا قاربت الرحلة على النهاية لا يكون قد تبقى إلا قلة من الأشداء بعد هذه الحلة المهلكة والتزاحم والتدافع والتسابق للمرو من أضيق الممرات – ممر أضيق من سم الخِيَاط – فيصل الأقوى إلى خدر الملكة المدللة المسماة بالبويضة التي تروغ وتزوغ وتهرب وتحاور وتناور فيما يشبه مناورات الطائرات أو ماتفعله ملكة النحل وكأنها عشقت احداً منهم وقالت لا أريد سواه، أحياناً تصل إلى مرادها وتسبق هي إلى من رغبت فتلتحم به، وأحياناً يسبقها جبارٌ من الجبابرة وقوي من الأقوياء الذين نجحوا في الرحلة فتسلم نفسها إليه وتذعن له فيمتزج بها ويلقحها ويحسم المسابقة أو بالأحرى المعركة الرهيبة، وبطريقة كيميائية أو كهربائية تقفل البويضة أبوابها في وجه من بقي من الفرسان([1]).

فهنا اتفق العلم والقرآن ومعهما السنة النبوية الصحيحة على هذه الحقائق.

أما عن السنة "حدثنا محمد بن سلام: أخبرنا الفزاري، عن حميد، عن أنس رضي الله عنه قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خبرني بهن آنفا

[1] - أنظر "التربية الراقية" شافع توفيق محمود – تحت الطبع.

جبريـل). قـال: فقـال عبـد الله: ذاك عـدو اليهـود مـن الملائكـة، فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما أول أشراط الساعة فنار تحشر النـاس مـن المشرق إلـى المغـرب، وأمـا أول طعـام يأكلـه أهل الجنـة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد: فإن الرجل إذا غشـي المرأة فسبقها مـاؤه كـان الشبه لـه، وإذا سبق ماؤهـا كـان الشبه لهـا). قـال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أي رجل فيكم عبـد الله بـن سـلام). قـالوا: أعلمنـا، وابـن أعلمنـا، وأخيرنـا، وابـن أخيرنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفرأيتم إن أسلم عبد الله). قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم فقال: أشـهد أن لا إلـه إلا الله وأشـهد أن محمـدا رسـول الله، فقالوا: شـرنا، وابـن شـرنا، ووقعوا فيه.[1]

وجـاء فـي مسند أحمـد – مسند أنـس بـن مالـك – رضـي الله عنـه "حدثنا غبد الله حدثني أبي حدثنا ابن أبي عدي عن حميد عن أنس: - أن عبـد الله بـن سـلام أتـى رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم مقدمـه المدينة فقال يا رسول الله إني سائلك عن ثلاث خصال لا يعلمهن إلا نبي قال سل قـال مـا أول أشـرط السـاعة ومـا أول مـا يأكـل منـه أهـل الجنة ومن أين يشبه الولد أبـاه وأمـه فقـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم أخبرني بهن جبريل عليه السلام آنفا قال ذلـك عدو اليهود من الملائكة قال أما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر

[1] - صحيح البخاري – كتاب الأنبياء – والحديث رواه أيضاً مسلم.

الناس إلى المغرب وأما أول ما يأكل منه أهل الجنة زيادة كبد حوت وأما شبه الولد أباه وأمه فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها قال أشهد أن لا اله إلا الله وأنك رسول الله وقال يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامي يبهتوني عندك فأرسل إليهم فاسألهم عني أي رجل ابن سلام فيكم قال فأرسل إليهم فقال أي رجل عبد الله بن سلام فيكم قالوا خيرنا وابن خيرنا وعالمنا وابن عالمنا وأفقهنا وابن أفقهنا قال أرأيتم إن أسلم تسلمون قالوا أعاذه الله من ذلك فخرج ابن سلام فقال أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله قالوا شرنا وابن شرنا وجاهلنا وابن جاهلنا فقال ابن سلام هذا الذي كنت أتخوف منه.

إلا أن الشيخ الغزالي رحمه الله وهل – أي أخطأ وغلط – فاعترض على هذا الحديث الذي هو في غاية الصحة والذي هو معجزة بكل المقاييس فخيل إليه أن هذا الحديث يعارض القرآن ويعارض حقائق العلم إذ التبس عليه الأمر فوهم أن المقصود بماء المرأة – المشار إليه في الحديث – هو الماء الذي ينزل منها عند قضاء الوطر، ومحال أن يكون هذا هو مقصد من لا ينطق عن الهوى، ذلك أن النطفة تطلق على ماء الرجل – لما فيه من حياة ويسمى منيّ يمنى –، أما ماء المرأة فلا يسمى في اللغة مني، وإنما يعبر عنه بالماء إذا قُصِدَ به ذلك الماء الذي هو مجرد سائل يبلل موضع الحرث عند الجماع، وهو ماء لا يحمل أي كائن حي، فإذا قال النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو يتحدث عن عملية الخلق التي يتكون منها الولد فهو يقصد البويضة لأن البويضة أيضاً ماء،

أو بلغة أدق هي وسط مائي يعيش فيه كائن حي تماماً كما أن المني وسط مائي يعيش فيه كائن حي، ودليلنا على ذلك قول الله تعالى عن عملية الخلق التي هي من الرجل والمرأة معاً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ المرسلات: ٢٠ ، وقال أيضاً: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ السجدة:٧- ٨ ، أي أن ماء المرأة بويضتها وماء وماء الرجل منيه.

ودليلنا أيضاً حديث أحمد في مسنده أن يهودياً مر بالنبي – صلى الله عليه وسلم –، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي، فقال لأسألنَّه عن شيءٍ لا يعلمه إلا نبي، فقال يا محمد: مم يخلق الإنسان؟، فقال – صلى الله عليه وسلم –: يا يهودي من كلٍ يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فقال اليهودي: هكذا كان يقول من كان قبلك (أي الأنبياء)، فهذا الحديث يتطابق أيضاً مع النص القرآني "من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا"، فالأمشاج هي الخليط بين النطفتين أو امتزاجهما، إن نصوص القرآن والسنة في هذا الصدد نصوص معجزة بكل المقاييس إذ تقرر حقائق لم يتوصل إليها العلم إلا في العصر الحديث ولا معارضة بينها.

فشتان بين ما ذهب إليه الشيخ الغزالي، وما تخرص به محمد السعيد عبد الطيف مشتهري، فالشيخ الغزالي يجل السنَّة أيما إجلال، والدكتور السعيد ينكرها أعظم إنكار.

إن ما تصوره الشيخ الغزالي – رحمه الله – من أن حديث ابن سلام يعارض آي القرآن هو كبوة جواد لإمام من أئمة الدعوة في عصرنا الحاضر لا تنال من قدره ولا عطائه، والرجل بكل صدق وتواضع قرر أنه ليس من علماء هذا الفن – علم مصطلح الحديث، وأنه يعرف صحيحه بما أوتي من ملكةٍ وخبرة طويلة في مجال الدعوة، وهو عذر مقبول.

إننا نعود فنؤكد أن حديث بن سلام الذي رواه البخاري وأحمد هو حديث في غاية الصحة سنداً ومتناً، وهو يشرح النص القرآني ولا يعارضه.

وبحسبنا أن نذكر للشيخ القاعدة التي قررها من أن اليقين الثابت بالوحي والعلم لا يجوز أن يتقدم عليه ظن علمي يرويه حديث آحاد، إن حديث الآحاد يتأخر حتماً أمام النص القرآني وأمام الحقيقة العلمية والواقع التاريخي، أو يتأخر كما يقول المالكيون أمام عمل أهل المدينة، وأمام القياس القطعي كما يقول الأحناف.

لكننا نضيف إلى ذلك أن السنة التي تروى بالسند المتتابع المتصل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم – ولم يسقط من السند أي راوٍ من رواتها يقسمها جمهور العلماء إلى قسمين (متواترة

وأحاديـة)، ويقـسمها الأحنـاف إلـى متـواترة وأحاديـة ومـشهورة، و المتواترة هي الأخبار التي تصلنا برسول الله اتصالاً بلا شبهة حتى صار الخبر كالمعاين المحسوس المسموع منه صلى الله عليه وسلم إذ يرويها قوم لا يحصى عددهم ولا يتوهم طواطئهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم وتباين أمكنتهم، وبالتالي فهي تفيد اليقين بل عين اليقين وحتميته كاليقين بثبوت القرآن تماماً، أما السنة المشهورة – وهي التي ينقلها عدد يستحيل طواطئهم على الكذب عن صحابي من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – فهي تفيد أيضاً اليقين بحصول قوله – صلى الله عليه وسلم – لكن ليس بنفس درجة السنة المتواترة، ويطلق على اليقين بحصول الأخبار المشهورة "علم الطمأنينة"، لذا وجب عند الأحناف تقييد مطلق القرآن الكريم بالسنة المشهورة "المستفيضة"، وقال شيخنا محمد فرغلي أن من ينكر الحديث المشهور يجب أن يستتاب.

وحديث الآحاد وهي الخبر الذي لم يبلغ نقلته من الكثرة مبلغ التواتر أو الاستفاضة وروي عن صحابي يقول علماؤنا أنه يفيد الظن ويقصدون الظن الراجح ، أي أننا نكون على يقين بحصول الخبر، ولكن بالطبع بدرجة أقل من اليقين الذي يفيده التواتر أو الاستفاضة لاسيما إذا تلقته الأمة بالقبول، وأجمعت على العمل بمقتضاه ورواه عدل، إذ الأمة لا تجتمع على ضلالة.

ونرى أنه لا بأس من الأخذ بحديث الآحاد بشرائطه في أمور العقيدة والغيب لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾الحجرات: ٦.

وطبقاً لمفهوم المخالفة فإن الآية تدل على أن الواحد العدل إذا جاء بخبر فالحجة قائمة بخبره ولا نحتاج إلى القرائن المُثبتة له، كما وأن خبر الواحد يفيد العلم واليقين إذا تلقته الأمة بالقبول([1]).

إن الشيخ الجليل – الشيخ الغزالي – يبجل السنة أيما تبجيل واسمع إن شئت قوله "وأما السنَّة فأوجز ما يقال فيها أنها: تنزيلٌ من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم، وقد أوتي محمد جوامع الكلم، وانسابت هداياته من ينبوع جياش بالرشد حافل بالخير، وسبحان من أبدع محمد – صلى الله عليه وسلم –، إنه الإنسان الفذ الذي صان الإيمان مادة ومعنى وعاش به سيرة ودعوة، وأقام على دعائمه مجتمعاً ودولة، وأنشأ باسمه حضارة ترنو إليها المشارق والمغارب، ويرهب بأسها المعتدون والفوضويون.. والثقافة الإسلامية قامت على الكتاب والسنة معاً، وقد يأست الشياطين من تحريف الكتاب فحاولت النيل من السنة، ولكن العلماء النقدة صدوا هذا الهجوم، ومضوا بقافلة الإسلام منيعة الجوانب على حين طاشت رسالات، وحالت رسوم، ولا نزال – بفضل الله – نحرس الإسلام ولن تخل الأرض من قائم لله بحجة، ولا أعرف أحداً من علماء الإسلام هون من مكانة السنة النبوية، وأجاز أن يقول رسول الله

[1] - انظر كتاب "الرد على القرآنيين" – شافع توفيق محمود – دار الصفا والمروة بالإسكندرية – ٢٠٠٨.

كلمة، ويمضي هو على خلافها، بل ذلك طريق الكفر، وما قد يقع بين العلماء من شجار في القضايا الفعية أساسه: أقال سول الله – صلى الله عليه وسلم – هذا الحديث أم لا؟، فقد تقول: رسا علم المصطلح واتضحت منه أسس القبول والرد بشتى المرويات، ونقول: صدقت وذلك ما نريد تطبيقه لا غير، **إننا نلتزم بما وضع أئمتنا الأولون، ولا نفكر في البعد عنهم**، كل ما لفتنا النظر إليه أن الشذوذ والعلل في متون الأحاديث يتدخل فيهما الفقهاء إلى جانب الحفّاظ، وقد تدخلوا فعلاً في الماضي، وجد في عصرنا ما يستدعي المزيد من البحث والاستقصاء...،"([1])

وبعد أن ساق الشيخ الغزالي حديثاً للبخاري تفرد به ابن كرامة عن خالد بن مخلد – حديث من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب.. – الذي تكلم فيه أحمد والذهبي وغيره، ورأى الشيخ رشيد أن في متنه غرابة لأن في الحديث "كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به"([2]) تحرّزاً من معتقد الحلول "ما في الجبة إلا الله"، قال الشيخ الغزالي (والإنصاف يقضي عليَّ بأن أؤكد مكانة صحيح البخاري فهو بلا ريب أدق كتب السنة، ومن الإنصاف كذلك توكيد احتواء كتب السنة على آلاف الأحاديث المقبولة، بذل الأسلاف في تدوينها جهوداً مضنية، ولا تتم الإفادة منها إلا بتعاون الفقهاء والمحدثين جميعاً على ضبط معانيها ومغازيها...، **وما بلغ من السنة درجة اليقين فسبيله سبيل القرآن الكريم لا يزيغ عنه إلا**

[1] ـ السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ـ الشيخ الغزالي.
[2] ـ وأنا أرى أن الشيخ رشيد جانبه الصواب وأن الحديث ليس بمعلول في سنده ولا متنه، وقد تأوّل معناه العلماء على حب الله تعالى وتوفيقه للعبد.

هالك، ومن علم على وجه اليقين أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أصدر أمراً ثم قرر رفضه فقد انسلخ عن الملة لا خلاف في هذا) ([1]).

وسبحان الله كأن الشيخ – رحمه الله – كان قد استشرف من وراء حجب الغيب بإلهام من الله ما سيكتبه محمد السعيد فرد عليه بأوضح عبارة.

إن الشيخ الغزالي – رحمه الله – استخدم حقه كفقيه في نقد المتون التي رأى أن فيها علة، وكذلك فعل من قبله أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – وأئمتنا في الفقه والأصول والحديث، وفعلت أنا في كتابي "الطب الروحاني"([2]) عند مناقشة حديث عثمان بن أبي العاص – تعرّض الشيطان له – برواياته المختلفة، وانتهيت إلى القول "ومسائل الإيمان لا يؤخذ فيها بالدليل الظني، إذ لا بد وأن يكون الدليل قطعي الثبوت قطعي الدلالة، وكذلك فعلت في كتابي "عقدة النكاح"([3])عند مناقشتي لمسألة طلاق الحائض، وبعد تمحيص الروايات سنداً ومتناً بغرض تحديد الألفاظ التي نطق بها فم النبوة بعينها وذاتها طبقاً للمعايير التي استندت عليها:

- البحث عن أقوى درجات السند وأعلاها من حيث الضبط والعدالة.
- طرح كل رواية تعارض النص الأعلى – القرآن –.

[1] - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث – الشيخ الغزالي.
[2] - الناشر دار الصفا والمروة بالاسكندرية – ٢٠٠٨.
[3] - الناشر دار الفرقان بالإسكندرية – سنة ٢٠٠٠.

- الأخذ بأقوى الروايات تفصيلاً مع مراعاة بلاغة عباراتها واتساقها مع مجمل النص تحصناً من الوقوع في جب الرواية المدرجة والرواية المختصرة، فانتهيت إلى أن الرواية الأعلى متناً والأثبت سنداً وتفصيلاً هي رواية مالك عن نافع عن بن عمر والتي تسمى بالطريق الذهبي أو السلسلة الذهبية، وهذه الرواية ذات المتن الأعلى والأثبت هي رواية الإمام البخاري التي أخرجها في كتاب الطلاق ونصها:"أن ابن عمر – رضي الله عنهما –، طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فسأل عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء)".

ونحن بلا ريب مع الشيخ الغزالي في قوله "**إن العقائد والأركان والمعالم الرئيسية لديننا تؤخذ مما نقل بالتواتر، أو مما استفاضت شهرته من الصحاح، أما الأحكام الفرعية فلا بأس عند تقريرها من النظر في أحاديث الآحاد، وقد بذل علماؤنا جهداً مشكوراً في ضبطها، إنهم لم يهدروا نقل عدلٍ ضابط، بل أعطوه ما يستحق من اهتمام**".

المبحث التاسع

الأرجوفة التاسعة

استهانة د/محمد السعيد بعلم الجرح والتعديل:

فهو يتعامل مع علم الجرح والتعديل باستهتار بالغ مع أن هذا العلم محل تقدير الأعداء قبل الأصدقاء.

إنه الميزان الذي يوزن به الرواة، وهو عبارة عن دراسة دقيقة لتفاصيل حياتهم وتقواهم وورعهم وقوة دليلهم ومدى ضبطهم وقوة حفظهم وتقسيمهم إلى درجات. ويرى د/محمد السعيد أن هذه الجهود الجبارة لأجل غربلة السنة هي جهود لا قيمة لها إذ لا تعدو كونها وجهات نظر؛ لكن الذي فاته أنها وجهات نظر قائمة على أسس واقعية وعلمية بهرت عقول علماء العالم في مجال توثيق السند، ومدى صحة نسبة النصوص إلى من تنسب إليه، وبها وبسببها وعلى هدي منها قام الغربيون بفرز تراثهم فتحققت لهم ثورتهم العلمية ونهضتهم الحضارية باعترافهم أنفسهم فتخلصوا من الموروث الديني المدسوس المعوِّق لحركة الحياة.

فكيف إذا ضممنا إلى ذلك عمل علماء الجرح والتعديل في مجال نقد المتن أي النص المروي ذاته، وما اشترطوا فيه من ألا يخالف الراوي الثقة من هو أوثق منه، وألا يكون في النص علة قادحة كأن يخالف مثلاً صريح القرآن ونحوه.

إن في السنة متواتراً رواه جمع من الصحابة ورواه عنهم جمع من التابعين. وبالتالي يستحيل تواطؤهم على الكذب. ومن التواتر تواتر معنوي لا يشترط فيه الرواية بذات اللفظ الذي خرج من فم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمتواتر يفيد علم اليقين. ومن السنة المشهورة والتي رواها عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – واحد أو جمع من الصحابة لا يبلغ حد التواتر ثم رواها عدد من التابعين وتابعي التابعين قد بلغ حد التواتر، وهي تفيد الغالب القوي الذي يقترب من اليقين.

وأما سنة الآحاد أو خبر الواحد فهو الذي رواه عنه – صلى الله عليه وسلم – عدد لم يبلغ حد التواتر في عصر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وإن بلغوا حد التواتر فيما بعد ذلك من العصور. وهي تفيد الظن الراجح إذا توفرت شرائطه، ولهذا فإن العلماء قرروا أنها حجة في الأحكام المتعلقة بأعمال الإنسان العملية كالصلاة والبيع ونحوه دون الأحكام الاعتقادية. ودلت على حجية السنة الصحيحة آيات كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ الحشر: ٧.

والذين أنكروا سنة الآحاد قد تصدى لهم الإمام الشافعي؛ فالخمر أريقت بخبر الواحد، والتحول إلى القبلة كان بخبر الواحد، ومن بعثهم النبي – صلى الله عليه وسلم – لتعليم الدين هم آحاد. فأخبار الآحاد حجة بشرائطها فكيف بالأخبار المشهورة والمتواترة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ

فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾الحجرات: ٦

، وبمفهوم المخالفة فإن غير الفاسق يصدَّق خبره. وذلك ما تعارفت عليه الدنيا في شتى أزمانها ومشارقها ومغاربها ما عدا ما دهمنا به د/ محمد السعيد.

المبحث العاشر

الأرجوفة العاشرة

التطاول على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - والتابعين وأئمة الحديث:

والتطاول على الصحابة – رضي الله عنهم – عموما، وبوجه خاص أبو هريرة وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم.

والانتصار لأبي هريرة وصد الهجوم عنه جابهناه بحسم في كتابنا "الرد على القرآنيين" بما يغني عن المزيد.

أما الهجوم على سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهو أثر من آثار ميل د/ محمد السعيد إلى الشيعة، فهم يعتقدون في حقيقة الأمر أن الذي حال بين تولية علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - الخلافة أولاً هو عمر - رضي الله - عنه بترشيحه أبو بكر - رضي الله عنه - لخلافة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقد اتخذ القوم من هذه المقولة مدخلاً للتفريق بين المسلمين بالغلو في علي - رضي الله عنه -، لدرجة القول بأنه يحيي الموتى ويفرج الكرب عن المكروبين، كما جاء في كتاب حسين عبد الوهاب "عيون المعجزات"، ويقولون إنه لا يدخل أحد الجنة إلا بجواز من علي - رضي الله عنه - كما في كتاب "مناقب أمير المؤمنين" لابن المغازلي، ويقولون أن الأئمة من بعده من ذريته إثنى عشر تجري الأمور بإذنهم([1])، بل يقولون أن الأئمة الإثنى عشر أفضل من الأنبياء والرسل كما جاء في

---

[1] - كتاب البرهان القاطع لشيخهم محمد تقي البهبجت

كتاب "الأنوار النعمانية" لنعمة الله الجزائري، ويقولون أن للإمام مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة كونية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات الكون كما في كتاب "تحرير الوسيلة" للخميني، ويقولون من لم يكن شيعياً اثنى عشرياً أو لم يؤمن بأحد الأئمة الاثنى عشر أو أنكر واحد منهم فقد كفر وفي الآخرة يكون مصيره النار([1])، بل قالوا بكفر أبو بكر وعمر وخالد وأكثر أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -، ويقولون بأن قراءة دعاء صنمي قريش (أبو بكر وعمر) من أعظم القربات وأفضل الطاعات، ويطلقون على أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – الجبت والطاغوت([2])، حيث يقولون (اللهم العنهما وأتباعهما) ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والضغينة والحقد على أبي بكر وعمر وخالد خاصة والصحابة عموماً مرده من وجهة نظرنا إلى خلفية تاريخية وعصبية مذهبية فارسية ذلك أن أبو بكر وعمر وخالد ومن خلفهم كبار الصحابة هم الذين أسقطوا دولة الفرس وأزالوا ملك كسرى من الوجود إلى الأبد، فكان من بين من أسلموا منافقون أضمروا الكيد للأمة والعمل على تفريقها بزعم التشيع للإمام علي - رضي الله عنه - و الطعن في صحابة النبي - صلى الله عليه وسلم - واتهامهم بكل نقيصة.

والقول بأن عمر كان سبباً في ألا يكتب النبي – صلى الله عليه وسلم – كتاب الوصاية لعلي – رضي الله عنه – هو قول في غاية السخف لأن إرادة النبي من إرادة الله، ولا راد لحكمة جل وعلا.

---

[1] - "جامع أحاديث الشيعة" للبرجردي ٤٢٩/١

[2] - أنظر كتاب "الروضة من الكافي للكليني" ٢٤٥/٨

وقد سبق لنا في كتابنا آنف البيان تفصيل القول في عدالة الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً.

ونحب أن نضيف في هذا المقام إشارة سريعة إلى منهج الصحابة في حفظ السنة ونقلها:([1])

١ - الصحابة لم يعرفوا الكذب.

قد زكى الله عصر النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابة رضي الله عنهم بقوله تعالى﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ آل عمران: ١١٠ ، وبقوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ البقرة: ١٤٣ .

وقال - صلى الله عليه وسلم - مزكياً أصحابه فيما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، وكذا الإمام مسلم "خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".

فهم رضوان الله عليهم لم يعرفوا الكذب القائم على الافتراء والتزوير، وما يرد من ألفاظ التكذيب على ألسنة أحدهم فهو بمعنى أخطأ.

---

[1] - :الفكر المنهجي عند المحدثين – د/ همام عبد الرحيم – قطر – ١٩٨٧.

جاء في لسان العرب: (ففي حديث عروة أن بن عباس يقول: إن النبي - صلى الله عليه وسلم - لبث بمكة بضعة عشر سنة، فقال كذب، أي أخطأ، سماه كذباً لأنه يشبهه؛ لأنه ضد الصواب. كما أن الكذب ضد الصدق وان افترقا من حيث النية والقصد)([1]).

٢- طلب الدليل والبرهان من بعضهم البعض زيادة في توثيق السنة:

وكلنا نذكر يوم أن جاءت الجدة إلى أبي بكر - رضي الله عنه - تسأله عن ميراثها فقال لها: ما لك في كتاب الله شيء، ولا علمت لك في سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً، فقال المغيرة بن شعبة – رضي الله عنه – حضرت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعطاها السدس، فقال أبو بكر – رضي الله عنه – هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مسلمة الأنصاري فقال مثل ما قال المغيرة، فأنفذ لها أبو بكر([2]).

وكلنا يذكر واقعة أبو موسي الأشعري مع عمر – رضي الله عنه – حيث طلب منه البينة على قوله، لا لأنه لا يقبل خبر الواحد العدل، وإنما قصد أن يوجه الصحابة إلى التحري والتثبت، إذ روى مالك في الموطأ أن عمر قال لأبي موسي "أما إني لم أتهمك، ولكني أردت ألا يتجرأ الناس على الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم".

ولقد كان الصحابة على مستوى المسئولية في هذا الشأن بما آتاهم الله من تقوى وورع، فكان الصحابي إذا حدث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فزع وخشي على نفسه من الزلل والخطأ، فقد روي عن

---

[1] - لسان العرب مادة (كذب)

[2] - هذا الخبر أخرجه الإمام مالك في الموطأ.

عمرو بن ميمون قال: كنت آتي بن مسعود كل خميس، فإذا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم انتفخت أوداجه ثم قال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريب ذلك، أو شبيه ذلك، أو كما قال([1]).

فقد علم الصحابة عظم المسئولية – مسئولية التحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم –.

٣- نقد المتن في زمن الصحابة:

ومثال ذلك ما دار بينهم من مساجلات حول هل يعذب الميت ببكاء أهله عليه أم لا؟، فبينما ترى عائشة أن النص جاء في الكافرين مستدلة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ الأنعام: ١٦٤.

لكن جمهور المحدثين يرون صحة ما روي عمر بن الخطاب وابنه – رضي الله عنهما – وقد ترجم الإمام البخاري لهذا الباب بقوله: باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - :"يعذب الميت ببكاء أهله عليه".

وعلق على ذلك بقوله: إذا كان النوح من سنته – أي من سنة الميت – ، فيكون البخاري حمل البكاء على ما إذا كان البكاء من عادة الميت قبل موته أن يسمع النواح من أهله فلا يمنعهم ولا ينهاهم ويرضى بذلك منهم، أو إذا أوصى بالبكاء – الصراخ والنواح – عليه بعد موته.

[1] - الكامل في ضعفاء الرجال وعلل الحديث لابن عدي ٣٢/١ – دار الفكر – بيروت – ٨٤.

مثال آخر: أخرج الإمام مسلم أنه - صلى الله عليه وسلم - قام على القليب يوم بدر وفيه قتلى من المشركين فقال لهم ما قال:"إنهم يسمعون ما أقول" قالت عائشة: قد وهل بن عمر – أي غلط ونسي – إنما قال (إنهم يعلمون أن ما كنت أقول لهم حق)، ثم قرأت "إنك لا تسمع الموتى" ، "وما أنت بمسمع من في القبور".

٤- أثرالفتن على الحديث في عصر الصحابة:

إن فتناً كبيرة وقعت في عصر الصحابة بسبب استهداف الأعداء لدين الإسلام بداية من مقتل عمر - رضي الله عنه- ، ومروراً بمقتل عثمان – رضي الله عنه - وانتهاءً بالفتنة الكبرى (منازعة معاوية لعلي - رضي الله عنهما - في أمر الخلافة ومقتل علي رضي الله عنه).

ولقد حاول المستشرقون ودعاة القرآنية أن يصوروا للناس أن الفتنة قد أثرت على السنة تأثيراً بالغاً وأنها شجعت أهل الأهواء على الوضع والكذب، والحقيقة أن ظهور الفتنة في هذا العصر المبكر والصحابة متوافرون أفاد السنة فائدة كبيرة، كما أفاد اللغة ظهور اللحن لاختلاط العرب بالعجم، الأمر الذي أدى إلى تقعيد قواعد النحو وضبطه وتدوين شواهده، فمع أن اللحن كان مفسدة من حيث تأثيره على سلامة اللغة، لكنه كان حافزاً لحفظها وتأسيس مناهجها وضبطها، ولو تأخر ذلك الأمر لاندثرت اللغة العربية السليمة، وكذلك ظهور الفتن مبكراً والصحابة أحياء، والرواية قريبة من مصدرها الأصلي فإن ذلك ساعد على حفظ السنة وغربلتها وتصفيتها من كل دخيل مبكراً وفي زمن

الصحابة والتابعين، وعبر عن ذلك التابعي الكبير بن سيرين بقوله: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم.([1])

٥- تحري اللفظ حتى في جيل التابعين:

فقد كان محمد بن شهاب الزهري، والقاسم بن محمد، ومحمد بن سيرين، ورجاء بن حيوة، والأعمش يتحرون الألفاظ حتى في الحروف، قال الأعمش: (كان هذا العلم عند أقوام كأن أحدهم يخر من السماء أحب إليه من أن يزيد فيه واواً أو ألفاً أو دالاً).

وأما الرواية بالمعنى فأجازها طائفة من التابعين والصحابة وعلماء الحديث إن هي أصابت المعنى، إذا كان الراوي عالماً بمعنى الكلام وموضوعه مميزاً لما يحيل المعنى وما لا يحيله وكان المعنى أيضاً ظاهراً معلوماً، وأما إذا كان غامضاً محتملاً فإنه لا يجوز رواية الحديث على المعنى، ويلزم إيراد اللفظ بعينه وسياقه على وجهه، فكان الصحابة رضوان الله عليهم يقولون إذا رووا بالمعنى "أو نحوه، أو شكله، أو كما قال صلى الله عليه وسلم"، وهم أرباب اللسان وأعلم الناس بمعاني الكلام، ومع ذلك كانوا يقولون ذلك تخوفاً من الزلل لمعرفتهم بما في الرواية على المعنى من الخطر.([2])

---

[1] - أنظر مقدمة صحيح مسلم.
[2] - أنظر الجامع لآداب الشيخ وأخلاق السامع للخطيب ٣١/٢.

٦- شروط النقل عن الصحابة "شروط قبول الخبر":

- **الإسلام:** وعلى أن يكون المحدث ثقة في دينه معروفاً بالصدق في حديثه، قد اشتهر بعدالته وملازمته للتقوى والورع، والنموذج الكامل لهذه الشخصية هي شخص الرسول – صلى الله عليه وسلم – ثم الصحابة – رضوان الله عليهم – ثم التابعين وأتباع التابعين.
- **العدالة.**
- **العقل.**
- **البلوغ.**
- **السلامة من أسباب الفسق.**
- **السلامة من خوارم المروءة**، كأن يكون مزاحاً قد أسقط هيبته ووقاره.
- **الضبط:** حتى قال الإمام مالك: إن من شيوخي من أستسقي بهم – أي أطلب منهم الدعاء بالسقيا – ولكني لا أروي عنهم الحديث، وقال بن أبي الزناد: أدركت بالمدينة مئة كلهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال ليس من أهله، أي أن الأمانة والتقوى والورع لا بد معها من الضبط والحفظ، يقول وهب بن إسماعيل: (ذاك رجل صالح وللحديث رجال) وهذا معنى قول الشافعي - رحمه الله - في من يحدِّث أنه يجب أن يكون عاقلاً لما يحدِّث به عالماً بما يحيل معاني الحديث من اللفظ وأن يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه كما سمع لا يحدِّث به على المعنى – لأنه إذا حدَّث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه لم يدري لعله يحيل الحلال إلى الحرام – وإذا أداه بحروفه لم يَبق وجه يخاف فيه إحالته الحديث – حافظاً إن حدَّث من

حفظه، حافظاً لكتابه إن حدث من كتابه، إذا شارك أهل الحفظ في الحديث وافق حديثهم .

ومن الحفاظ الكبار محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وأبو اسحق السبيعي، والأعمش، وقتادة، وهؤلاء كانوا على درجة عالية من الضبط وآداء الحديث على حروفه كما سمعوه، فهذا الزهري سأله هشام بن عبد الملك أن يملي على بعض ولده أربع مائة حديث، وخرج الزهري، فقال: أين أنتم يا أصحاب الحديث؟ فحدثهم بتلك الأربعمئة ثم لقي هشاماً بعد شهر أو نحوه، فقال للزهري: إن ذلك الكتاب ضاع. فدعا بكاتب فأملاها عليه، ثم قابل بالكتاب الأول، فما غادر حرفاً واحداً، وروي عن الزهري أنه قال: ما استعدت حديثاً قط وما شككت في حديث إلا حديثاً واحداً فسألت صاحبي فإذا هو كما حفظت.([1])

وكذلك قتادة بن دعامة فقد كان أحفظ أهل البصرة وكان رأساً في العربية واللغة وأيام العرب، وقال عنه بن سيرين: قتادة أحفظ الناس.([2])

ولأئمتنا في ذلك مصطلحاتهم، كقولهم عن الراوي أنه ثقة، أو متقن ثبت، فهو ممن يحتج بحديثه، وإذا قيل إنه صدوق أو لا بأس به فهو ممن يكتب حديثه وينظر فيه، وإذا قيل صالح الحديث فإنه يكتب حديثه للإعتبار، ويقولون لين الحديث فهو في منزلة أقل، ويقولون ضعيف الحديث فلا يؤخذ بحديثه إلا للعبرة والموعظة، ويقولون متروك الحديث أو كذاب، فهو ساقط الحديث لا يؤخذ عنه.

---

[1] ـ تذكرة الحفاظ للذهبي ١١٠/١.
[2] ـ المرجع السابق.

وهكذا فقد بزغ على أيدي علمائنا علم جديد هو علم العلل، فالحديث قد يستوفي مع عناصره الشكلية للصحة، ومع ذلك إذا عرض على المختص الخبير يرده ولا يقبله لوجود علة فيه يعرفها لطول ممارسته لعلم الحديث، ومن رواد هذا العلم أئمتنا الشافعي ومالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وبن ماجة وغيرهم كثير، ومن أشهرهم شعبة بن الحجاج، ويحيى بن سعيد القطان، ومن علماء العلل الأفذاذ أيضاً علي بن المديني شيخ البخاري، وللبخاري براعة خاصة وتعمق كبير في علم العلل، وهذا العلم هو نوع من النقد الموضوعي العميق الذي يحتاج إلى معرفة واسعة ويتناول أنواعاً من الفقه النقدي بعضها تاريخي وبعضها اجتماعي وبعضها نفسي وبعضها عقيدي وبعضها فقهي.([1])

٧- نقد المتن:

ويعنى بنقد المتن تناول النصوص ذاتها ومناقشتها، وقد ظهرت باكورة ذلك منذ عهد الصحابة كما سبق القول، فعائشة - رضي الله عنها - اعترضت على عدد من الروايات لا لمأخذ على الرواة سوى ما عبرت عنه بـ"الوهل" ٠- أي الغلط والنسيان – لأن هذه الروايات رأتها لا تنسجم مع المبادئ العامة والبدهيات الشرعية والعقلية، وقد صنف الزركشي كتاباً في استدراكات عائشة على الصحابة، كما أن الإمام الشافعي عندما يختلف مع غيره فغالباً ما يكون الاختلاف لا في ثبوت النص وإنما في فهم النص، وله في ذلك كتاب بعنوان اختلاف الحديث، فلا غرو أن رأينا من علماء الحديث من يضعف حديثاً سنده صحيح، فيقولون منكر المتن، شاذ، مضطرب،

---

[1] - أنظر المرجع السابق.

غريب، فيه ظلمة، يقشعر منه الجلد، لا يطمئن له القلب، وبينوا أخطاء بعض الرواة في ذكر الأسماء أو الرفع، أو الوقف، أو الإرسال، أو الاختصار.

إن الإمام البخاري يختار الرواية من بين مئات الروايات، وقد ثبت بعد جمع الروايات أن اختياراته مدروسة وقائمة على البحث والتتبع.

إننا ولكي ندرك حجم الجناية التي جناها د/محمد السعيد على أئمة الحديث الذين بهروا العالم بمنهجهم النقدي الجديد للأسانيد والمتون، والذي أحدث انقلابة حضارية كبرى وصار مثلاً يحتذى، لكي ندرك ذلك ونعرف حجم المأساة لابد لنا أن نعيش قليلاً مع مناهج هؤلاء الأئمة وبالذات الإمام البخاري فهو صاحب النصيب الأوفر من الهجوم لدى دعاة القرآنية، وكيف لا وهو السد المنيع الذي حال بين السنة والخرافة، وحمل لواء الذب عن سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وكأنه قد صنعه الله على عينه ليحفظ به سنة رسوله – صلى الله عليه وسلم –.

ولقد نسي محمد السعيد وإخوانه قديماً وحديثاً من دعاة وأدعياء القرآنية ثناء الله على أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم -، من ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾([1])، وقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ

[1] - الفتح – ١٨.

أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ ([1])، وقال تعالى: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ([2])، وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ ﴾ ([3]).

وفضلاً عن اهدار محمد السعيد لهذه الآيات القرآنية فإنه يخوض في بحر لجي من المغالطات التاريخية يركز عليها أيما تركيز، فيدعي أن ما

---

[1] - الفتح: ٢٩.
[2] - الحشر: ٨ – ١٠.
[3] - الحديد: ١٠.

شجر بين الصحابة وما وقع من قتال يجعله يحط من قدرهم، فما الذي يدعو إلى تصديقهم فيما نقلوه عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

وهذا المسلك هو غاية الغوغائية والسفسطة وقلب الحقائق، فمن ذا الذي يجرؤ على الكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعدما تواتر عنه "من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار"، أما القتال لاختلاف وجهات النظر فهو أمر وارد، قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ ([1])، وقد ثبت بالدليل القاطع إمامة علي وأن من خرج عليه كان باغياً يجب قتاله حتى يفيء إلى الحق وينقلب إلى الصلح، لقوله – صلى الله عليه وسلم – فيما صح عنه في عمار بن ياسر " ويح عمار تقتله الفئة الباغية".

أما الصحابة – رضي الله عنهم – فهم برئاء من دم عثمان – رضي الله عنه – لأن عثمان – رضي الله عنهم منع من قتال من ثار عليه وقال: "لا أكون أول من خالف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في أمته بالقتل"، فصبر على البلاء واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة، ثم لم يكن ترك الناس سدى فعرضت الإمامة على باقي الصحابة الذين ذكرهم عمر في الشورى وكان علي أحق بها وأهلها فقبلها حوطة على الأمة من التهارج وسفك الدم، فلما بويع له طالب أهل الشام في شرط البيعة التمكين من قتلة عثمان – رضي الله عنه – وأخذ القود منهم، فقال لهم علي – رضي الله عنه – ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه، فقالوا لا تستحق بيعة وقتلة

[1] - الحجرات: ٩.

عثمان معك فتراهم صباحاً ومساءً فكان علي في ذلك أسد رأياً وأصوب قولاً، لأن علياً لو تعاطى القود منهم لتعصبت لهم قبائل وصارت حرباً ثالثة فانتظر بهم أن يستوثق الأمن وتنعقد البيعة العامة ويقطع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم فيجري القضاء بالحق، ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة، وكذلك جرى لطلحة والزبير، فإنهما ما خلعا علياً عن ولاية ولا اعترضا عليه في ديانة وإنما رأيا أن البداءة بقتل أصحاب عثمان أولى، فيبقى هو على رأيه لا يزعزعه عما رأى – وهو كان الصواب – كلامهما ولا أن يؤثِّرَ فيه قولهما، وكذلك كان كل واحد منهما يثني على صاحبه ويشهد له بالجنة ويذكر مناقبه، ولو كان الأمر على خلاف هذا لتبرأ كل واحد من صاحبه، **فلم يكن تقاتل القوم على دنيا ولا بغياً بينهم في العقائد وإنما كان اختلافاً في اجتهاد**، فلذلك كان جميعهم في الجنة([1]).

فمن الجدير بالذكر أنه عندما حاول الزبير وطلحة الثأر لعثمان في البصرة خرجت عليهم عبد القيس بأكملها، وغضبت ستة آلاف سيف من بني تميم لحرقوص بن زهير لما طلبوه، فاعتزلوا عنها واتسع الخرق عليهم فكان رأي الإمام علي – رضي الله عنه – في هذه الكارثة أسد وأصوب منهم جميعاً وأصلاً اقتبس منه العلماء قاعدة فقهية "أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة"؛ على أن حرب الجمل كانت فلتة من غير قصد من الفريقين بل كانت تهييجاً من قتلة عثمان رضي الله عنه، حيث صاروا فرقتين، واختلطوا بالعسكرين، وأقاموا الحرب خوفاً من القصاص منهم إذا اتفق الفئتان.

[1] - انظر اتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسنة من فضائل الصحابة – محمد العربي الصطيفي المغربي

١ـ الإمام البخاري: الترجمة والمنهج:

الإمام البخاري هو أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري نسبة إلى مدينة بخارى، وهي تقع في ولاية أزباكستان، ولد يوم الجمعة ١٩٤هـ، وتوفي ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦هـ.

وكان أبوه صالحًا، ذكر صاحب سير الأعلام النبلاء أن محمدًا بن إسماعيل وهو على فراش الموت قال: "لا أعلم في جميع مالي درهمًا من شبهة فتصاغرت إليَّ نفسي".

وكان رجلاً ثريًا وهو من علماء الحديث وترجم له بن حبان في كتاب الثقات، والتقى بالإمام مالك بن أنس إمام المدينة، وتوفي إلى رحمة الله وابنه محمد طفلاً صغيرًا.

وكانت أمه مؤمنة صالحة، ربته خير تربية، ودفعت به إلى سدة العلم والعلماء.

وكان قد أصيب محمد بالعمى، فقامت إلى ربها في صلاة خاشعة دائمة ضارعة تدعوه وتلح في طلب الشفاء لابنها في تذلل وخضوع وكثرة بكاء.

وروى ابن كثير في تاريخه والسبكي في طبقاته أنها رأت في منامها الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ، يقول لها: "يا هذه قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك ودعائك فانتبهت من نومها فإذا ابنها قد ارتد بصيرًا معافى، فوجهته إلى الكتاب ليسير سير أبيه، فحفظ القرآن، ثم صار شغوفًا بحديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فراح يتردد على أئمة

الحديث في بلاد شتى فعرف المتون والأسانيد ونبغ في علم الحديث. ورحل في طلبه إلى أكثر محدثي الأمصار، ونزل بخراسان ومدن العراق والحجاز والشام ومصر، وقدم بغداد وشهد له اهلها بتفرده في علم الرواية والدراية.

فحينما بلغ من العمر ست عشرة سنة مضى مع أمه وأخيه لأداء فريضة الحج، وقررا البقاء في المدينة ليزداد علمًا، ورجعت أمه مع أخيه أحمد إلى بخارى.

ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره، وفي مدينة رسول الله – صلى الله عليه وسلم- أتم كتابه (تاريخ الثقات والضعفاء من الرواة)، وصنف التاريخ الكبير في المدينة عند قبر الحبيب محمد – صلى الله عليه وسلم -، وهو كتاب عبارة عن موسوعة ضخمة ذكر فيها تراجم - أي سير - وتفاصيل حياة أكثر من أربعين ألفًا من الرواة ما بين ثقة وضعيف ورجل وامرأة، وهو أمر مدهش حقًا يكشف بجلاء عن عبقرية فذة ونبوغ فريد مبكر لا تفسير له إلا أن هذا الفتى صناعة ربانية صنعه الله على عينه ليحفظ به سنة نبيه – صلى الله عليه وسلم -.

وحُق لشيخه اسحاق بن راهوية أن يندهش كما اندهشنا بكتاب تلميذه محمد، فحمله بين يديه ودخل به على الأمير عبد الله بن طاهر وهو يقول أيها الأمير: "ألا أريك سحرًا.."؟!

ولا يفوتنا أن نذكر باندهاش أكبر قوة حفظ البخاري وقدرته الخارقة على التذكر، ويحسبنا ما رواه عن امتحان الذاكرة الذي أُجري له من

قِبل علماء بغداد، قال: "سمعت أبا أحمد بن عدي يقول: سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد، فسمع به أحد أصحاب الحديث، فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث، فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا من متن هذا الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوا إلى عشرة أنفس، إلى كل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يُلقوا ذلك على البخاري، وأخذوا العدة للمجلس، فحضر المجلس جماعة أصحاب الحديث من الغرباء، من أهل خراسان وغيرها، ومن البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث، فقال البخاري: "لا أعرفه" فسأله عن آخر فقال: "لا أعرفه"، فما زال يلقي عليه واحدًا بعد واحد حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول لا أعرفه، فكان الفهماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: الرجل فهم، ومن كان منهم غير ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الفهم، ثم انتدب آخر من العشرة،فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة، فقال البخاري: لا أعرفه، فسأله عن آخر، فقال لا أعرفه، فلم يزل يلقي عليه واحدًا بعد الآخر حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول لا أعرفه، ثم انتدب إليه الثالث والرابع إلى تمام العشرة، حتى فرغوا كلهم من الحاديث المقلوبة، والبخاري لا يزيدهم على: لا أعرفه، فلما علم البخاري أنهم قد فرغوا، والتفت غلى الأول منهم، فقال: أما حديثك الأول فهو كذا والثاني فهو كذا.. والثالث والرابع على التوالي حتى أتى على تمام العشرة، فرد كل متن إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك، ورد متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها،

وأسانيدها على متونها، فأقر له الناس بالحفظ، وأذعنوا له بالفضل، والمدهش ليس فقط أنه رد الأحاديث الصحيحة ، والمدهش ليس فقط أنه رد الأحاديث الصحيحة لى أسانيدها، بل الأشد منه إدهاشاً أنه حفظ مشافهة ومن الإلقاء لأول مرة المئة حديث المقلوبة وسردها كما قالها أصحابها، إنها ذاكرةٌ نادرة.

مؤلفات البخاري:

١- التاريخ الكبير.
٢- الجامع الصحيح.
٣- كتاب الضعفاء الصغير، مرتب حسب حروف الهجاء.
٤- كتاب الكنى (لمن غلبت كنيته على اسمه من الرجال).
٥- كتاب الأدب المفرد..ذكر فيه البخاري جملة من الأحاديث النبوية في الأخلاق والمعاملات ابتدأه بعد البسملة بباب قوله تعالى: "ووصينا الإنسان بوالديه حسنًا".
٦- رفع اليدين في الصلاة.
٧- خير الكلام في القراءة خلف الإمام.
٨- التاريخ الأوسط.
٩- كتابَ الأشربة.
١٠- بر الوالدين.
١١- التفسير الكبير للقرآن، وتوجد نسخة منه في مكتبة الجزائر، وأخرى في مكتبة باريس.
١٢- كتاب الوحدان وهو من ليس له إلا حديث واحد.
١٣- قضايا الصحابة والتابعين.

١٤- كتاب الهبة، وغيرها.

ونتمنى على الله أن يوفق إحدى دور النشر لإصدار جميع مؤلفات الإمام البخاري في موسوعة واحدة إثراءً للمكتبة الإسلامية، وحفاظًا على هذا التراث النادر.

كلمة عن الجامع الصحيح:

واسمه: (الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه)، وكان قد عزم البخاري على جمعه منذ أن سمع شيخه إسحاق بن راهوية يقول لتلامذته: "لو جمعتم كتابًا مختصرًا لصحيح سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ".

قال البخاري: "فوقع ذلك على قلبي فأخذت في جمع الجامع الصحيح".

وكان ذلك في توقيت بلغ فيه البخاري المنتهى في علم الحديث، لاسيما وقد شرح الله صدره بان رأى في منامه أنه يذب عن النبي – صلى الله عليه وسلم – بمروحة في يده، فأوله له المفسرون أنه يذب الكذب عن النبي – صلى الله عليه وسلم -.

يقول البخاري: "صنفت الجامع الصحيح لست عشرة سنة خرجته من ستمائة ألف حديث، وجعلته حجة بيني وبين الله عز وجل... وما أدخلت فيه حديثًا إلا بعدما استخرت الله تعالى وصليت ركعتين وتيقنت صحته".

فماذا نقول في هذا الرجل؟! صدق والله من قال: "عندي لو أن أهل الإسلام اجتمعوا على أن ينصّبوا مثل محمد بن إسماعيل آخر لما قدروا عليه".

وحُق لتلميذه الإمام الترمذي القول "لم أر أحدًا بالعراق ولا خراسان في معنى العلل والتاريخ والأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل".

ولقد جاءه ذات مرة تلميذه الإمام مسلم صاحب صحيح مسلم وقبَّله بين عينيه، وقال: "دعني أقبّل رجلك يا أستاذ الأستاذِين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله"، وقال عنه مرة أخرى: "لا يبغضك إلا حاسد،وأشهد أن ليس في الدنيا مثلك".

وألف كتاب الجامع الصحيح، ومكث في تأليفه ست عشرة سنة وخرجه من بين ستمائة ألف حديث.

وصحيح البخاري يمتاز بمنهجه المدهش في إتقانه. ومنذ عصر البخاري إلى زماننا لم يؤلف مثل هذا الكتاب في بابه وموضوعه، فقد دخل البخاري إلى أحاديث الجامع بعد رحلة طويلة مع التاريخ، فقد ترجم في كتاب "التاريخ الكبير" الكثير من رواة الحديث متعقبًا كل واحد منهم وباحثًا في دقائق وتفاصيل حياته، فوقف على مسارات الروايات وطرقها، وتعرف على مراتبها ومنازلها من الصحة، بعد أن تعرف على الرواة، فاستطاع أن يصطفي منهم الطبقة الأولى التي تمتاز بأعلى مراتب العدالة والضبط وطول صحبة الراوي لمن روى عنه، كما أنه جعل كتابه جامعًا فنوع في موضوعاته وفصّل، وقد ضم بين دفتيه واحدًا

وتسعين كتابًا على نسق فريد وترتيب محكم، وقد خصص كتابه للصحيح المجرد استجابة لطلب شيخه إسحاق بن إبراهيم بن راهوية، وبلغت أحاديث كتابه ما يزيد على ألفين وستمائة حديث وهو يذكر الحديث الواحد بأسانيد متعددة حيث ينوع في ذكر شيوخه فيزداد السند قوة أو يبين الأسماء والكنى التي يلتبس أمرها، وعن طريق هذا التنويع يزيل الشبهة في ضعف الراوي بذكر طرق أخرى تؤكد أن البخاري لم يعتمد على راوٍ بعينه، فقد روى البخاري عن إسماعيل بن أبي أويس، وإسماعيل معروف بشيء من الضعف ولكن البخاري روى عن إسماعيل ما صح من حديثه، فمثلاً عندما يروي البخاري عن إسماعيل بن أبي أويس فإنه يذكر الحديث من طرق أخرى قوية.

كما امتاز كتاب الجامع الصحيح للإمام البخاري – علاوة على منهجيته في تخير الرجال والأسانيد- بتلك الطريقة البديعة في تنظيم الموضوع الواحد، والتقديم لكل حديث أو باب بمقدمة تشرحه وتوضحه بإيجاز، وهذه المقدمات يطلق عليها "التراجم" وقد اهتم العلماء بتراجم البخاري حتى قالوا: "فقه البخاري في تراجمه".

ولنأخذ مثالاً على ذلك يبين مدى جهد البخاري، قال البخاري -رحمه الله- في ترجمة كتاب الإيمان – باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - "بني الإسلام على خمس" وهو قول وعمل، ويزيد وينقص، قَالَ تَعَالَى:

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴿٤﴾﴾ الفتح: ٤ ، وقَالَ تَعَالَى: ﴿

﴾الكهف: ١٣﴿ وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ ﴿مريم: ٧٦﴾ وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ ﴿محمد: ١٧﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ﴿التوبة: ١٢٤﴾ وقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ ﴿آل عمران: ١٧٣﴾ ، وقوله تعالى: قال تعالى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ﴿الأحزاب: ٢٢﴾ والحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا، فإن أعش فسأبينها لكم، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص. وقال إبراهيم: "ولكن ليطمئن قلبي" وقال معاذ: اجلس بنا نؤمن ساعة. وقال ابن مسعود: اليقين الإيمان كله. وقال ابن عمر: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر. وقال مجاهد: "شرع لكم من الدين" اوصيناك يا محمد وإياه دينًا واحدًا. وقال ابن عباس: شريعة ومنهاجًا: سبيلاً وسنة.

بهذه المقدمة افتتح البخاري كتاب الإيمان الذي احتوى على اثنين وأربعين بابًا اشتملت على واحد وثمانين حديثًا فكانت المقدمة معبرة عن جميع هذه الأبواب.

والبخاري ليس راوية حديث فحسب، ولا رجل دراية في الأسانيد فقط، ولكنه فضلاً عن ذلك شرب العقيدة من نبعها الصافي، وأحاط علمًا وفهمًا لما شابها من شوائب لدى بعض معاصريه وصححها لهم بأدب جم.

وقد جعل أبواب الإيمان هي مفتتح كتابه الجامع الصحيح، لينتصر لدين الله ، ودحر أصحاب العقائد الفاسدة وكان قوله هو القول الفصل؛ فنجده في مقدمته الإفتتاحية يحمل حملة عنيفة على المرجئة، وهم الذين كانوا يقولون: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وإنه لا تنفع مع الإيمان طاعة، ولا تضر معه معصية، أو كما يقال اليوم (ربك رب قلوب) وهي ممارسة منحرفة لتصور منحرف.

فقام بجمع خصال الإيمان المبثوثة في أحاديث النبي – صلى الله عليه وسلم- وجعلها في منظومة واحدة مترابطة تكشف بجلاء أن الإيمان قول وعمل وأنه يزيد وينقص، وجعل مركز الدائرة في خصال الإيمان التجمع على رابطة العقيدة، حيث بوب لذلك بقوله باب "والحب في الله، والبغض في الله من الإيمان"([1]).

ولعلك الآن تسأل، رجلٌ على هذا المستوى من النبوغ والدأب والذكاء والورع والمستوى الفريد في الذب عن سنة الحبيب محمد صلى الله عليه

---

[1] - انظر هدي الساري لابن حجر، والفكر المنهجي عند المحدثين لهمام عبد الرحيم، وانظر لنا الرد على القرآنيين.

وسلم، ما الذي يجعله هو بالذات غرضاً وهدفاً لسهام أدعياء القرآنية؟ وجواب ذلك أن تفرده هذا هو السبب، فهو السد العظيم وحائط الصد المنيع الذي تتحطم أمامه هجمات أعداء السنة عليها، فالنيل منه يفتح الطريق للنيل من غيره من حماة السنة، وتسهل عملية هدم حصونها وأسوارها الشامخة، وزاد من الحنق عليه أنه من الفرس، فكان من المؤمَّل أن ينضم إلى قطيع الشيعة ودعاة القرآنية في الهجوم على السنة بدلاً من أن يكون في طليعة من حملوا لواء الدفاع عنها، ولقد جاء عى لسان أحمد منصور وهو إمام أدعياء القرآنية، وأستاذهم المعاصر قوله إن البخاري شعوبياً مجوسياً، وقد أصبح حتى الآن متمتعاً بالقداسة لدى رعاع المسلمين، أنظر إلى أي مدى بلغ الحقد والدس والكيد لأستاذ الأساتذة رحمه الله .

٢- منهج الإمام مسلم ٢٠٤ – ٢٦١ هـ

هو الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد القشيري النيسابوري، وهو تلميذ الإمام البخاري، وكتابه مكمل لكتاب البخاري، ويمتاز منهج مسلم بالآتي:

١- تعبتر مقدمة صحيح مسلم من أوائل المقدمات العلمية المنهجية، بل هي جديرة أن تكون النموذج المنهجي العالمي في علم المقدمات، وأهم قضايا هذه المقدمة:

أ) بيان سبب تصنيف الكتاب: طلب منه بيان إحصائي لسنن الدين وأحكامه بالأسانيد التي نقلت بها.

ب) عزمه على التأليف فيما طلب منه، وأنه سيقسمها على ثلاثة أقسام وثلاث طلبات من الناس على غير تكرار إلا أن يأتي موضع لا يستغنى فيه عن ترداد حديث فيه زيادة معنى، أو إسناد يقع إلى جنب إسناد، لعلة تكون هناك، فأما القسم الأول فإننا نتوخى أن نقدم الأخبار التي هي أسلم من العيوب من غيرها وأنقى، من أن يكون ناقلوها أهل استقامة فـ يالحديث وإتقان لما نقلوا، فأما ما كان منها عن قوم عند أهل الحديث متهمون أو عند الأكثر منهم، فلسنا بتشاغل بتخريج أحاديثهم، كعبد الله بن مسور أبي جعفر المدائني، وعمرو بن خالد، وعبد القدوس الشامي، ومحمد بن سعيد المصلوب، وغياث بن إبراهيم، وسليمان بن عمر، وأبي داود النخعي وأشباههم ممن اتهم بوضع الأحاديث وتوليد الأخبار، وكذلك من الغالب على حديثه المنكر أو الغلط أمسكنا أيضاً عن حديثهم.

ج) بيّن وجوب الرواية عن الثقات وترك الرواية عن الضعفاء والكذابين.

د) ناقش صحة الاحتجاج بالحديث المروي بصيغة (عن) وحمل هذه الصيغة على الاتصال إذا برئ صاحبها من التدليس، وبين منهجه في قبولها.

قد أجاب الإمام عمرو بن الصلاح على من قالوا عن مسلم أنه يروي عن الضعفاء والمتوسطين الواقعين في الطبقة الثانية، أجاب عليهم بالآتي:

أولاً: أن الإمام مسلم قد يوثق من هو ضعيف عند غيره، وقد نقل كلام أبي بكر الخطيب في ذلك، حيث قال: "ما احتج الببخاري ومسلم وأبي داود بجماعة عُلم الطعن فيهم من غيرهم محمول على أنه لم يثبت الطعن المؤثر مفسر السبب"، ومعنى كلام الخطيب أن الجرح قد يكون غير مؤثر وسببه لا يكفي إثبات الجرح. وبعض من ضعف عند قوم إنما ضعف بسبب غير وجيه، ومن ذلك كثرة الاتهام بالبدعة حيث كان يرمى بها بالشبهة والظن.

ثانيا: أن يكون ذلك واقعاً في المتابعات والشواهد لا في الأصول وذلك بأن يذكر الحديث أولاً بإسناد نظيف رجاله ثقات ويجعله أصلاً، ثم يتبعه بإسناد آخر أو أسانيد فيها بعض الضعفاء على وجه التأكيد بالمتابعة، أو لزيادة فيه تنبيه على فائدة فيما قدمه.

ثالثاً: أن يكون ضعف الضعيف الذي احتج به طرأ بعد أخذه عنه باختلاط حدث عليه، أي كان عند الرواية ضابطا، ثم ا حاله واختلط عقله؛ فما كان من الرواية في حال قوته فهو صحيح.

فمن منهجه أنه يؤيد الرواية بالرواية ويعضد الطريق بالطريق حتى ينقلنا إلى مراتب الصحة العليا، وهو منهج مستقل عن منهج أستاذه البخاري الذي يحقق مرتبة الصحة العليا ابتداءً لاعتماده على الرواية القوية العالية، وهو يؤدي الألفاظ كما أخذها عن شيوخه، وقد برع في تسجيل الفوارق بين الأسانيد والمتون، فهو أستاذ في علم التحقيق، وهو

يسمع من الشيخ ويقرأ عليه، وهو لا يتعاملمع الرواية منفصلة عن سياقها والظروف التي قيلت فيها.

٢- يختار الإمام مسلم رجال أسانيده من رجال الصحيح أهل الطبقة الثانية فصاعداً وهم المشهورون بالعدالة والضبط، إلا أن ملازمتهم لشيوخهم أقل من رجال الطبقة الأولى.

٣- منهج الإمام أبي داود ٢٠٢ – ٢٧٥ هـ

كتابه السنن هو أحد الكتب الستة المشهورة في الحديث وقد خصصه للأحاديث الواردة في الأحكام، وقد احتوى الكتاب على أربعة آلاف وثمانمائة حديث متصل وستمائة حديث مرسل.

فهو أورد الكثير من أحاديث الأحكام قد تبدو ضعيفة لضعف رواتها. وبثاقب نظره وعمق إحاطته استطاع أن يقارن هذه الأحاديث ويعضدها بروايات أخرى فأصبحت صالحة للإحتجاج بها، وهو منهج فريد اتبعه هو والإمام الترمذي إذ قبلها كان الحديث يقسم إلى صحيح وضعيف لكن هذا المنهج الفذ جعل الحديث يقسم إلى حديث صحيح وحسن وضعيف.

قال أبو داود في رسالته إلى أهل مكة عن كتابه "وهو كتاب لا ترد عليك سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح إلا وهي فيه".
أما الترمذي فيعبر عن ذلك بقوله حديث حسن.

كل ذلك مع التسليم بأن كتابه السنن احتوى على أحاديث رواتها ضعفاء وقرر لنا ذلك هو بنفسه، وأن ما فيها من وهن شديد فقد بينه كما بين لنا أن

من منهجه أنه يصير إلى المرسل إذا لم يعثر في المسألة على رواية ذات سند متصل، ونحن لا نوافقه على ذلك ونرى أن الصواب في المراسيل ما نهجه الإمام الشافعي حيث اشترط للقبول الحديث المرسل أن يكون من مراسيل كبار التابعين، وأن يكون إذ سمى الحلقة المفقودة م نالسنة لا يسمي إلا ثقة أو أن يأتي بمثله قول لأهل العلم، فعند إذ يحتج بالمرسل ولكنه لا يكون في قوة السند المتصل.

ومن محاسن كتاب السنن أنك تجد فيه المراوحة بين الروايات والتنقل بينها وكأنك تزور حدائق غناء، فأبي داود لا يكتفي برواية واحدة وإنما يتجول بنا بين الزيادات ويطلعنا على الفروق بينها، خذ مثلاً قوله:
" حدثنا مسدد وسهل بن بكار قائلاً: حدثنا أبو عوانه.... وحدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن مجاهد عن بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من استعانكم فأعينوه، ومن سألكم بالله فأعطوه)، وقال سهل وعثمان (ومن دعاكم فأجيبوه)، ثم اتفقوا (ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه)، قال مسدد (فإن لم تجدوا فادعوا الله له حتى تعلموا أن قد كافأتموه)".

تحليل:

نلاحظ في رواية أبي داود أنه قد ذكر الحديث من ثلاث روايات (مسدد، وسهل، وعثمان) ثم فصل الروايات حيث اتفقت وحيث افترقت، وهذا المنهج يقدم لنا الكثير من الفوائد الحديثية.

٤- منهج الإمام النسائي ٢١٥ - ٣٠٣ هـ

قال الدارقطني عنه هو أفقه مشايخ مصر في عصره وأعلمهم بالحديث والرجال.

وقال الذهبي "ولم يكن أحد في رأس الثلاثمائة أحفظ من النسائي".

صنف كتباً قيمة أهمها السنن الكبرى وهو أصل كتابه المجتبى المعروف بسنن النسائي، ويدخل في السنن الكبرى كتاب خصائص علي كرم الله وجهه، وعمل يوم وليلة" وله كتاب في التفسير، وكتاب في علم الحديث "الضعفاء".

منهجه في كتابة السنن:

كتاب السنن للنسائي هو أيضاً كتاب تخصص في أحاديث الأحكام.

وتظهر فيه شخصية النسائي كفقيه وقاضي صاحب فن بديع سابق لعصره، وهو أقرب إلى المناهج والأساليب المتبعة في الرسائل المعاصرة لنيل درجة الدكتوراة، ويتفوق عليها من حيث الإحاطة والتبحر ووزن الحجج ومقارنتها وذكر العلل.

بل الإمام النسائي لا يكتفي بتسجيل النتائج كما يفعل الإمامين البخاري ومسلم، فهما يذكران الصحيحة من الحديث ولا يذكران شيئاً عن الحوار بين التصحيح والتضعيف، وكأن هذين الإمامين يعرضان الحديث في صورته النهائية كما يعرض الصائغ سبائكه الذهبية في خزائن العرض، بينما نجد الإمام النسائي كالصائغ الذي يأخذنا إلى مصنع الصياغة وهنالك

نرى الذهب بأشكاله الأولية وعبر عملياته التحويلية حتى يخلص إلى مرحلته النهائية.

وهو فضلاً عن كونه إمام في الفقه والقضاء والحديث فهو إمام في علم الجرح والتعديل والعلل.

وقد قسم محمد بن طاهر المقدسي صاحب كتاب "شروط الأئمة الستة" أحاديث سنن النسائي إلى ثلاثة أقسام:
(المخرج في الصحيحين وهو أكثر كتابه، الصحيح على شرطهما، أحاديث ابان عن علتها بما يفهمه أهل المعرفة –أي أهل هذا العلم-).

٥- منهج الإمام الترمذي:

هو أبو عيسى محمد بن عيسى ٢٠٩ – ٢٧٩ هـ.
كان يضرب به المثل في الحفظ، وتميز بالورع والتقوى والزهد في الدنيا، قال عنه الذهبي في الميزان: "أبو عيسى الترمذي صاحب الجامع ثقة مجمع عليه".
أما مصنفاته فأشهرها كتابه "الجامع" المعروف بسنن الترمذي، وكتاب "العلل الكبير" "شمائل النبي صلى الله عليه وسلم"([1]).

منهجه في كتابه "الجامع":

هو كتاب لا يقتصر على الأحكام وهو جامع بالفعل للسنة، وقد تميز بمقدمة تكشف عن منهجه أسماها العلل الصغير، وبالرغم من تلمذة

---

[1] - انظر سير أعلام النبلاء

الترمذي على الإمام البخاري إلا أنه له منهجه الخاص وتلك سمة ذلك العصر، عصر الاجتهاد.

ويتلخص منهج الإمام الترمذي بأنه منهج في التعليل، إذ أن رواة الحديث عنده يتفاوتون في مراتبهم من حيث العدالة (الورع والتقوى)، والضبط (قوة الحفظ)، وهي طبيعة البشر في التفاوت والتفاضل، ومما يحسب للترمذي أنه تنبه لهذا فتوجه إلى فئة من الرجال ليسوا بالمتروكين ولا الكذابين ولا فاحشي الخطأ، ولكنهم من أهل الصدق والستر والاشتغال بالعلم، فهو يحتج برواياتهم إذا وجد من يؤيدهم ويعضدهم، وهو بذلك فتح الباب لتدارك ما لم يتداركه غيره، إذ الإمام البخاري ينظر إلى الفئات العليا من الرواة فيعتمد على الفئة المتميزة بقوة الحفظ، وتمام العدالة، وتبعه في ذلك تلميذه الإمام مسلم، أما الطبقة الوسطى من الرواة فيعود الفضل في العناية بها إلى الترمذي والنسائي، وكان الإمام الشافعي من خلال كلامه عن المرسل (الحديث الغير متصل السند) قد أسس لهذا المنهج؛ وبذلك يكون الترمذي صاحب منهج جديد سار عليه أبو داود والنسائي، لكن الترمذي هو الذي أصّله، فقد عدل حال هؤلاء الرواة بقرائن وشواهد ومتابعات، وهكذا ظهر اصطلاح الحسن عند الترمذي، فالحديث إذا كان في أعلى درجات الاحتجاج فهو: حسن + صحيح = حسن صحيح، وإذا كان في أدنى درجات الاحتجاج به فهو حسن، أي ما حسن إسناده عند الترمذي، وهو كل ما لا يكون في إسناده من يتهم بالكذب، ولا يكون شاذاً، ويكون روي من غير وجه، وبشرط ألا يكون الراوي مغفلاً يخطئ كثيراً، وبالجملة فالحديث الحسن عند الترمذي يدخل في دائرة الصحيح، ولا يفوتنا أن نذكر أن منهج الإمام الترمذي يمتاز أيضاً بأنه لا ينظر إلى الحديث من

خلال رواية واحدة فقط، بل ينظر إليه من خلال الباب؛ فهو يتعامل مع الموضوع الواحد وما فيه من أحاديث متصلة ومنقطعة وأقوال الصحابة والتابعين ومذاهب الأئمة إلمشهورين، كما يمتاز جامع الترمذي بذكر مذاهب علماء الأنصار وفقههم وطرقهم، وقد أثنى الإمام الذهبي على كتاب الترمذي في سير أعلام النبلاء فقال "في الجامع علم نافع وفوائد غزيرة ورؤوس المسائل وهو أحد أصول الإسلام لولا ما كدره بأحاديث واهية بعضها موضوع وكثير منها في الفضائل"، فهو يثني عليه لكنه تحامل عليه إذ رأى أنه متساهل في التصحيح والتحسين، والرواية عن الضعفاء، ويذكر من ذلك روايته حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني "الصلح جائز بين المسلمين" وهي رواية صححها الترمذي. قال بن معين أن كثير هذا ليس بشيء، وقال الشافعي وأبو داود عن هذا الرجل المدعو كثير أنه ركن من أركان الكذب.

ويا ليت الذهبي تنبه إلى قول البخاري في كثير بن عبد الله بعد سؤال الترمذي عنه: (قال الترمذي قلت لمحمد – أي محمد بن إسماعيل البخاري –: في حديث كثير بن عبد الله في الساعة التي ترجى يوم الجمعة:كيف هو؟ قال: هو حديث حسن إلا أن أحمد كان يحمل على كثير "يضعفه". وقد روى عنه يحيى بن سعيد الأنصاري.

والظاهر أن كثير لم يجمع العلماء على تضعيفه، ويؤكد ذلك ما قاله البخاري، فالإمام البخاري ومسلم من منهجهما المعروف أنهما يصححان الحديث باعتبار روايات أخرى ثابتة من طرق أخرى.

وهذا القليل النادر الذي ينتقد به الترمذي لا يحمل المنصف على رد تصحيحه وإبطال أحكامه، فالترمذي إمام مجتهد في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف.

٦- منهج الإمام بن ماجة في كتابه السنن٢٠٩ - ٢٧٣

هو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني .

كان حافظاً ناقداً واسع العلم، صنف السنن والتاريخ والتفسير، وكتابه السنن أقرب إلى الكتاب الجامع للترمذي، وهو يجمع بين أحاديث الأحكام وغيرها، ويمتاز كتاب بن ماجة بحسن الترتيب والتبويب والاتساع بما احتوى من زوائد على الكتب الخمسة.

المبحث الحادي عشر

الأرجوفة الحادية عشرة

التشكيك في قضايا سنة الآحاد والسنة المستفيضة المشهورة بل التشكيك حتى في قضايا السنة المتواترة:

إن مناهج علماء الحديث ودأب الرجال الجهابذة وجهودهم المضنية الجبارة صيانة لسنة المصطفى – صلى الله عيه وسلم – وتحريرها من العبث بها والدس فيها لتصل إلينا كما خرجت من فم الحبيب محمد – صلى الله عليه وسلم – حرفاً أو معنىً يطابق مراده – صلى الله عليه وسلم –، إلا أن هذه الجهود لم تغنِ محمد سعيد، ولم تشفِ غليله، فراح يستنجد بالمنطق الأرسطي ويستخدمه كمعول هدم للسنة المطهرة، فمضى على طريقة أرسطو يشكك في قضايا خبر الآحاد والأخبار المشهورة بل حتى في قضايا الخبر المتواتر بل حتى في نسبة كتب السنة لأصحابها زاعماً أن الأخبار مهما تواترت فهي لا تفيد اليقين حتماً. أو على حد قوله أنه لا يملك القرائن اليقينية "أي الحتمية" على صحة وصدق الخبر فما الذي يدعونا إلى الثقة في نقلة الأخبار؟! حتى قال سعادته ما نصه "إما كلام رسول الله في حياته فهو يتحدث به مع قومه، أما بعد وفاته فلا يصح شرعًا أن نقول قال رسول الله إلا إذا كان لدينا شريطًا مسجلاً عليه صوته المتصل بذاته شخصيًا والمعروف لنا مسبقًا".[1]

[1]- لا إله إلا الله عقيدة وشريعة، محمد السعيد، ص ٣٦

وبهذا يكون د/محمد سعيد قد استخدم ذات المنطق الأرسطي الذي يقرر صاحبه أرسطو أن العلم الحقيقي هو العلم الذي نصل إليه فقط بالبرهان العقلي، وليس عن طريق التجربة ولا الخبر المتواتر مهما كانت حالة الرواة فإن القضية في هذه الحالة تكون احتمالية الصدق، وهو بذلك يشكك في صحة كل قضايا الدين التي هي من قضايا الخبر المتواتر.

ولقد استطاع شيخ الإسلام ابن تيمية في المسائل الكبرى وكتابه نقد المنطق أن يهدم هذا المنطق الأرسطي، فقال إن الخبر المتواتر يفيد العلم اليقيني، فنحن نعلم يقيناً بأن ثمة مدن كبرى قائمة مع أننا لم نراها، ولكننا عرفناها وأيقنا بوجودها عن طريق السماع ووصف من رآها لنا، فكيف إذا كان من بيننا أصحاب منهج بحث دقيق، وقدرة على تحقيق قضايا الخبر المتواتر حتى وقد أصلوا أصولاً سبروا بها أغوار نقلة الأخبار وصولاً إلى الحسم الدقيق في صحة الخبر المروي؟!

إن أرسطو قد انطلق من فكرة خاطئة وهي اعتقاد اليونان بقدم العالم، وانتقل إلى فكرة أشد خطأً وهي أنه بالتالي فالصفات الثابتة للأشياء لا تتغير ولا تتخلف، وهذا خطأٌ فاحش، لأن ثبات الصفات لا يرجع إلى ذاتها وطبعها كما يتصورون، ولكن مرده ومرجعه إلى الله خالق الأشياء، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١ ﴾ فاطر: ١.

وإلا فليفسر لنا أرسطو وأتباعه حقيقة انقراض بعض أنواع الحيوانات من الوجود، فأين قدم العالم إذن، وأين ثبات الصفات الجوهرية للأشياء؟!

بل الصفة الجوهرية للشيء قد لا توجد في فرد من أفراد النوع، فمثلاً هل يفكر المجنون؟!، إن هذا يهدم أهم قضية بدهية عنده "قضية الإنسان مفكر"، الأمر الذي أدى إلى تخبطهم حتى قالوا إن المجنون يفكر ولكن تفكيره فاسد، وهو قول متهاتر لا قيمة له، إذ النتيجة واحدة، إن أرسطو إذن يسلم بصحة أشياء حتى وإن كانت خطأ في الواقع.

وهكذا ينهار المنهج الأرسطي الذي يعتمد على التفسيرات العقلية ويعتبرها وحدها أساس البرهان، والحقيقة أن التجارب الحسية والأخبار المتواترة تعتبر هي أساس العلم وأساس اليقين، إن قوانين الفكر المشهورة ليست بدهيات ولكنها مجرد مسلمات لا بد وأن تستمد من الخبرة الحسية والتجربة الواقعية، وهذا ما تنبه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وسبق إليه المنطقي الإنجليزي "بوزانكيت" وغيره، فالتجربة عند ابن تيمية تشمل ما جربه الإنسان بحسه وعقله، سواء أكان ذلك من فعل نفسه أو من فعل غيره ولم يره، ولكن علمه بالخبر المتواتر (أي السماع).

إن العلم الحقيقي عند ابن تيمية يشمل ما في الأذهان وما تراه الأعين وما لم تره، ولكن سمعته الآذان، وهكذا يصل بنا ابن تيمية وعن طريق المنطق السليم إلى الإيمان بكل ما جاء عن نبينا – صلى الله عليه وسلم – وصححه ونقله إلينا ممحصاً أهل الاختصاص على عكس مراد أرسطو وأتباعه الذين حق فيهم قول القائل أن من تمنطق بمنطقهم فقد تزندق، فقد أوضح شيخ

الإسلام ابن تيمية ببراعة كيف أن المنطق الأرسطي منطق فاسد يؤدي إلى إنكار الحقائق الدينية، بل وإلى إنكار كل حقيقة ثابتة مستقرة.

إن أرسطو يعتمد فى منطقه على الفكرة المجردة المرتبطة بخرافات المتافيزيقا اليونانية، أى أنه منطق لا صلة له بالواقع التجريبي.

يقول الدكتور/ علي سامي النشار في كتابه مناهج البحث "إن ابن تيمية اعتبر الحد (الإسم) مجرد شرح للفظ"

وسبب انحراف الفكر اليونانى وتصورهم الخاطئ بأن العالم قديم وبالتالى اعتقادهم بقدم حقائق الأشياء أى صفاتها الجوهرية، ثم رتبوا على ذلك قولهم بأن هذه الصفات ثابتة وكلية لا تتغير ولا تتخلف في حين أن ثبات الصفات للأشياء لا يرجع إلى ذاتها وطبعها كما يتصورون ولكنه يرجع إلى الله، قال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ فاطر:١/

يقول الدكتور/ علي سامي النشار في كتابه مناهج البحث:" إن ابن تيمية أوضح أعظم فكرة عرفتها الإنسانية في ميدان التجربة، وأن ابن تيمية بهذا يسبق "فرنسيس بيكون" و"ميل" في جعلهما التجربة والاستقراء أساس المعرفة".

إذ أوضح شيخ الإسلام أن مصدر العلم هو التجربة والعلم الجزئي والخبر المتواتر، ورد عى أتباع أرسطو الذين ينظرون إلى القضايا المتواترة على أنها قضايا جزئية لا تكون يقينية إلا عند من علمها فقال: إن عدم علمهم ليس علماً بعدم وجود التواتر، فكيف يعتبرون قضايا الدين غير يقينية في حين يعتبرون آثارهم الفلسفية المتواترة يقينية برغم أنها لا تستند إلى دلائل حسية في مثل صدق دلائل الإخبار بأقوال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

فما أشبه الليلة بالبارحة، هاهو محمد سعيد **يطلب شريطاً مسجلاً بصوت النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى يصدق أنه قال!!!!**

إن القضايا التحليلية ليست معصومة من الخطأ والتغيير والتبديل، أي أن الإسلام يرفض القول بحتميتها، تلك الحتمية التي قال بها أهل اليونان ترتيباً على معتقدهم الخاطئ بقدم العالم – ولا قديم إلا الله –، وقولهم بالتالي ثبات الصفة الجوهرية للأشياء وقد ثبت بطلان ذلك.

إن أهل البصيرة يرون أن هذه القضايا الكلية ليست حتمية، بل حتى قوانين الفطرة الإلهية التي ينظم الله بها ناموسه الكوني ليست جامدة ولا متعسفة كقانون الحتمية اليوناني، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ الرعد: ٣٩.

وكما يقول الدكتور حسن الشرقاوي في كتابه نحو منهج علمي إسلامي "إن كل علماء المنطق المعاصر يقولون برفض مبدأ الحتمية".

إلا أن محمد سعيد يريد أن يرتد بنا القهقرى إلى المنطق الأرسطي الذي يعتبر الأخبار المتواترة لا تفيد اليقين "أي حتماً" فيطلب شريطاً مسجلاً بصوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى يصدق أنه قال، فتواتر الأخبار لا يكفيه، وغربلتها لا تغنيه، ومناهج المحدثين لا ترضيه، مع أنها انعكست على كل العلوم النقلية كعلوم اللغة والتاريخ والفن ونحوه، فنقلها علماؤها بأسانيدها.

إن العالم كله مدين بالفضل لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث حرر العقول من الأفكار الصورية الأرسطية المنطلقة من مقدمات خاطئة، فقد استطاع ببراعة وقوة واقتدار في كتابه نقد المنطق أن ينقض منطق أرسطو، وأن يهدمه حتى أتى عليه من القواعد، إذ بين ابن تيمية في كتابه نقد المنطق أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين، وأقام المنهج التجريبي القائل بأن الملاحظة والتجربة هى أساس العلم وأصله، وليس التفكير النظري المجرد.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٠

إننا نعود فنؤكد أن التجربة عند ابن تيمية شاملة لما جربه الإنسان بحسه وعقله **سواء كان ذلك من فعل نفسه أو من فعل غيره، ويعلمها من لم يرها بالخبر المتواتر (أى السماع)** كالعلم بالمدن مثل مكة، أو كالعلم ببحر مشهور أو نبى مرسل من الأنبياء، فرغم أن كثيرًا لم يروا البحر أبدًا ولم يروا مكة أو نبيًا من الأنبياء إلا أن العلم بهما يتم عن طريق الخبر المتواتر(السماع)، ومرة أخرى يكون شيخ الإسلام ابن تيمية قد هدم المنهج الأرسطى ومناهج كل من اقتفى آثاره ممن يعتبرون القضايا المتواترة ليست يقينية إلا عند من علمها من أمثال محمد السعيد في عصرنا الذي يعتبر أقوال النبي- صلى الله عليه وسلم- ليست حجة إلا على قومه الذين تحدث إليهم، وفي هذا هدم للديانة بالكلية.

إن الإخبار عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم- يسمو على كل إخبار، فلا يوجد خبر في مثل صدق دلائل أخبار الشريعة الإسلامية"[1]

إن مناهج المحدثين كما وصفها أحد العلماء وبحق هي منطق المنقول وميزان تصحيح الأخبار.

لقد اجتهد علماء الحديث وجهابذته في رواية كل ما رواه الرواة، ثم اجتهدوا في الاستيثاق من صحة كل خبر وحديث حرفاً ومعنى بعد غوص عميق في أحوال الرواة ومقابلات مضنية بين المرويات، حتى حكموا بضعف أحاديث كثيرة لأقل شبهة، وقدموا الجرح على التعديل، فكانت قواعدهم أصح قواعد الإثبات على مدار التاريخ، وكان منهجهم هو منهج القرآن، إذ لا يسلم بالنص دون محاكمة ونقد..قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ الأحقاف: ٤، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ الحجرات: ٦ وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ الأنعام: ١٤٣ ، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ النمل: ٦٤ ،

وهذا المنهج القرآني الذي لا يسلم بالنص إلا إذا اتفق مع الأسس الثابتة والمبادئ العامة انفرد به الإسلام وغاب عن سائر التواريخ قبله.

---

[1] ـ انظر الفلسفة والمنطق ، د. جمال عبد الهادى ، وا. على أحمد لين.

يقول د/ همام عبد الرحيم في كتابه الفكر المنهجي عند المحدثين "ثم جاء الإسلام ليمنح العالم أجمع هذا المنهج المسئول القائم على البحث والاستقصاء والتفكير السليم، وقد جعل "شارل جنيبير" منهج النقد التاريخي في مواجهة منهج الإيمان بالنصرانية ذلك المنهج الذي يأخذ الروايات عن السابقين دون مناقشة أو محاكمة".

ولا يفوتنى أن أذكر أنه إذا كان علماء الحديث منهم من قسم الأخبار عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- إلى أخبار متواترة، وهى التى يرويها جمع عن جمع عن جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب، الأمر الذى يفيد حتمية وقطعية ثبوت الخبر، وإلى أخبار آحاد (أى لم ترويها جموع)، وبالتالى فهى أخبار ظنية الثبوت وليست قطعية (أى حتمية) الثبوت.
فإن الذى نراه وهو الأولى والصواب تقسيم الأخبار إلى ثلاثة: متواترة، ومشهورة مستفيضة، وأخبار آحاد.

والأحاديث المستفيضة المشهورة هى التيٰ رواها جمع عن جمع عن جمع ولكنهم أقل عددًا إلا أن الأمة تلقتها بالقبول.

ومثل هذه الأحاديث لا يصح أن يقال عنها أنها أحاديث آحاد ولا أنها ظنية الثبوت بل هي أيضًا يقينية وحتمية الثبوت، إلا أنها في مرتبة اقرب إلى مرتبة التواتر، والقول بأنها ظنية الثبوت يقصد به الظن الراجح الذى يتحقق به أيضًا اليقين من صحة ثبوت الخبر.

أما حديث الآحاد غهو بالتحديد الحديث الذى يرويه الواحد.

ولندع هنا المنصة الآن للإمام الشافعى ليحدثنا عن شروط حجية جبر الواحد إذ يقول في الرسالة:"وفي السنة أخبار آحادٍ أو خاصة، فما هي؟ ما شروط قبولها؟ في ذلك يذكر الشافعي أن قائلاً قال له: احدد لي أقل ما تقوم به الحجة على أهل العلم حتى يثبت عليهم خبر الخاصة.

فقلت: خبر الواحد عن الواحد حتى ينتهي به إلى النبي أو من انتهى به إلأيه دونه. ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أموراً: منها أن يكون من حدث به ثقة في دينه، معروفاً بالصدق في حديثه، عاقلاً لما يحدث به، عالماً بما يحيل معاني الحديث من اللفظ وأن يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه كما سمع لا يحدث به على المعنى، لأنه إذا حدث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه لم يدر لعله يحيل الحلال إلى الحرام، وإذا أداه بحروفه فلم يبق وجه يخاف فيه إحالته الحديث حافظاً إن حدث به من حفظه ، حافظاً لكتابه إن حدث من كتابه، إذا شرك أهل الحفظ في الحديث وافق حديثهم، بريأ من أن يكون مدلساً، يحدث عمن لقي ما لم يسمع فيه، ويحدث عن النبي ما يحدث الثقات خلافه عن النبي.

ويكون هكذا من فوقه ممن حدثه حتى ينتهي الحديث موصولاً إلى النبي، أو إلى ما انتهى إليه دونه، بأن كل واحد منهم مثبت لمن حدثه، ومثبت على من حدث عنهم، فلا يستغنى في كل واحد منهم عما وصفت".

ويمضي الإمام الشافعي في إقامة الحجة على قبول أحاديث الآحاد فيقول: "فإن قال لي قائل: اذكر الحجة في تثبيت خبر الواحد بنص خبر أو دلالة فيه أو إجماع؟ قلت له: أخبرنا سفيان عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، أن النبي – صلى الله عليه وسلم –

قال:"نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحبط من وراءهم".

فلما ندب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها امرأ يؤديها والامرؤ واحد دل على أنه لا يأمر أن يؤدى عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه لأنه إنما يؤدي عنه حلال يؤتى وحرام يجتنب وحد يقام ومال يؤخذ ويعطى ونصيحة في دين ودنيا، وأمر رسول الله بلزوم جماعة المسلمين، مما يحتج به في أن إجماع المسلمين – إن شاء الله - لازم.

ثم استدل بعد ذلك بوقائع لزمت فيها الحجة بخبر الواحد، ومنها واقعة لها خطرها في تاريخ المسلمين، قال فيها ما نصه: أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن بن عمر قال: "بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ أتاهم آت فقال: إن رسول الله أنزل عليه قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة".

وأهل قباء أهل سابقة من الأنصار وفقه، وقد كانوا على قبلة فرض الله عليهم استقبالها، ولم يكن لهم أن يدعوا فرض الله في القبلة إلا بما يقوم عليهم به الحجة، ولم يلقوا رسول الله، ولم يسمعوا ما أنزل الله عليه في تحويل القبلة، وانتقلوا بخبر واحد إذ كان عندهم من أهل الصدق عن فرض كان عليهم فتركوه إلى ما أخبرهم عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه أحدث عليهم من تحويل القبلة، ولم يكونوا ليفعلوه – إن شاء الله – بخبر إلا

عن علم بأن الحجة تثبت بمثله إذا كان من أهل الصدق، ولا ليحدثوا مثل هذا الحدث العظيم في دينهم إلا عن علم بأنه لهم إحداثه.

ولا يفوت الإمام الشافعي التركيز على أن السنة جميعها الأمة في حاجة إليها، فهي الأصل الثاني للشريعة، ولابد منها بجانب القرآن، وتناول هذه القضية في مواضع كثيرة من رسالته، ونذكر منها أنه بعد أن أتى ببعض الآيات الدالة على فرض الصلاة والزكاة والحج قال: أحكم الله فرضه في كتابه في الصلاة والزكاة والحج، وبين كيف فرضه على لسان نبيه، فبين رسول الله أن عدد الصلوات المفروضات خمس، وأخبر أن عدد الظهر والعصر والعشاء في الحضر أربع، وعدد المغرب ثلاث وعدد الصبح ركعتان، وسن فيها كلها قراءة، وسن أن الجهر فيها بالقراءة في المغرب والعشاء والصبح، وأن المخافتة بالقراءة في الظهر والعصر، وسن أن الفرض في الدخول في كل صلاة بتكبير، والخروج منها بتسليم، وأنه يؤتى فيها بتكبير ثم بقراءة ثم ركوع ثم سجدتين بعد الركوع، وما سوى هذا من حدودها، ثم ذكر في الزكاة آيات جاء فيها فرضهامنها قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ التوبة: ١٠٣.

وقال: فدلت السنة على أن الزكاة في بعض الأموال دون بعض، فلما كان المال أصنافاً منه الماشية، فأخذ رسول الله من الإبل والغنم، وكان

للناس ماشية من خيل وحمر وبغال وغيرها فلم يأخذ رسول الله منها شيئاً، وسن أن ليس في الخيل صدقة.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعۡرُوشَـٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ الأنعام: ١٤١.

فسن رسول الله أن يؤخذ مما فيه زكاة من بات الأرض الغراس وغيره، على أن حكم الله جل ثناؤه يوم يحصد لا وقت له غيره. وسن في الركاز الخمس فدل على أنه يوم يوجد لا في وقت غيره. أخبرنا سفيان عن الزهري عن بن المسيب، وأبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله قال: "وفي الركاز الخمس".

ولولا دلالة السنة كان ظاهر القرآن أن الأموال كلها سواء، وأن الزكاة في جميعها لا في بعضها دون بعض.([1])

إن النصوص الأحادية تمثلت في واقع أمة مشهود لها بالخيرية والوسطية، وولدت هذه النصوص في مرحلة هي خير مراحلها: مرحلة السيرة والوجود النبوي، والخلافة الراشدة؛ الأمر الذي يمنح الأحاديث الأحادية فضلاً عن المستفيضة والمتواترة؛ يمنحها التواتر الواقعي أو العملي.

---

[1] - انظ ... ـ ر الشافعي.

وغني عن البيان أن نقول أن السنة كما أنها مبينة لأحكام القرآن فهي منشئة للعديد من الأحكام والأداب، فالسنة هي التي أعطت اليقين للأنساب. قال – صلى الله عليه وسلم: "الولد للفراش، وللعاهر الحَجَرْ" (أخرجه البخاري في صحيحه. والسنة هي التي حرمت لحم الحمير والكلاب، وهي التي حرمت نكاح المتعة، وحرمتالجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، والسنة هي التي حرمت خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية، والسنة هي التي فصلت حقوق المسلم على المسلم، وحقوق الجار على جاره ونحو ذلك من الأحكام الأخلاقية والتشريعية المنظمة للحياة. وتوقيف السنة هو توقيف للحياة، وهدم لنظام المجتمع.

وختاماً وقبل أن أغادر مقامي هذا لا يسعني إلا أن أُقبِّلَ رؤوس وأيدي أئمتنا النوابغ العظام - أحمد والشافعي ومالك وابن قطان والذهبي وغيرهم الكثير - الذين نقلوا إلينا أخبار أقوال النبي – صلى الله عليه وسلم – بعنعنة وأسانيد ممحصة أدق تمحيص فأفادت العلم اليقيني بحصولها إذ روتها جموع عن جموع عن جموع ومن أماكن شتى يستحيل تواطئهم على الكذب.

فتواتر الأخبار لفظاً أو معنى بوجود قدر مشترك بينهما قل أو كثر عدد الرواة فإنه يجعلنا ويجعل الدنيا كلها على يقين من صحة الخبر، فنحن نجد في نفوسنا الجزم بوجود المدن الغائبة عنا والأشخاص الذين مضوا من قبلنا جزماً لا تردد فيه تماماً كجزمنا بالأمور المحسوسة المشاهدة، وبالتالي فالمنكر لحصول العلم الحاصل بالتواتر اللفظي أو المعنوي أو المستفيض

أو حتى المنقول عن الفرد الواحد العدل فإن المنكر لذلك يكون كالمنكر للأمور المشاهدات وهو إما مجنون أو مكابر سفسطائي أرسطي.

إننا نقول وبكل ثقة وحق يقين وعين يقين أن علم الإسناد قد اكتمل بنيانه وتجمَّل للناظرين بما يُغني عن المزيد، وكذلك علم المتون، إلا أن علم المتون مازال فيه متسع لمزيد من لمسات الجمال بمقارناتٍ إضافية للمتون حتى يتبين لنا نص الألفاظ التي نطق وتلفظ بها فم النبوة وإن كان – وكما سبق القول – يكفينا أن يُنقلَ إلينا قول النبي – صلى الله عليه وسلم – بالمعنى – أي كما قال ونحو ما قال – حسب تعبير صحابته الكرام – رضي الله عنهم أجمعين – متواتراً أو مستفيضاً أو آحاداً يررويه الصادق العدل.

وفإننا نعود فنؤكدعلى خطورة وفساد هذا المنزلق – التشكيك في الأخبار المتواترة – الذي يمضي بصاحبه إلى الهاوية وإلى مزبلة التاريخ.

ولا يفوتنا – في النهاية، وفضلاً عن كل ما سبق، أن نذكر أن محمد السعيد مشتهري تهاترت أقواله وتناقضت إلى حد صارخ؛ فبينما هو ينكر على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حقه في أن يقول، ويريده أن يصمت فلا يتكلم إلا بما جاء به القرآن، لأن السنة في نظره هي ما سنه القرآن، رأيناه يعود فيقرر أن من حق النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يقول، ولكن قوله لا يكون حجة إلا على قومه، أما من جاءوا من بعدهم فلا يلزمهم الأخذ بأحاديثه لأنه ليس بين أيديهم شريط مسجل بصوته المتصل بذاته والمعروف لنا مسبقاً، فهو كحيران خر من السماء فتخطفه الطير أو

تهوي بـه الـريح فـي مكـان سـحيق. وتبقـى الـسنة قذى فـي عيـون أعـدائها محفوظـة بحفظ الله لها.

والله من وراء القصد وهو يهدي إلى سواء السبيل

الفقير إلى رحمة ربه

شافع توفيق محمود

المحامي
بالنقض والإدارية العليا والدستورية العليا
١٨ ش سعد زغلول – محطة الرمل – اسكندريه

الإسكندرية في ٢٧ ربيع أول ١٤٢٩ هـ، ٤ أبريل ٢٠٠٨ م

((فهرس الموضوعات))

الترقيم الدولي :	رقم الأيداع :
977 – 17 – 5679 - 6	٢٠٠٨/٩٣٠٤

شركـة الصفـا للطبـاعـة

١٢ ش سمير عبد الرحيم من الجزائر

العمرانية الغربية - جيزة

ت:٣٥٦٣٠٨٧٢


Bibliotheca Alexandrina
0685147
شركة الصفا للطباعة ت:٣٥٦٣٠٨٧٢